مسعود عمشوش

عسكول

رواية



٢٠٢٦

عسكول

(رواية)

مسعود عمشوش

2026

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى 2026

العنوان: عسكول (رواية)

المؤلف: مسعود سعيد عمشوش

المقاس: 14 × 21 سم

عدد الصفحات: 169

يمنع طباعة أو تصـــوير هذه المطبـــوعة أو أجزاء منها، أو حفظها أو نسخها على الوسائط الإلكترونية من غير موافقة مسبقة من المؤلف

مركز مهارات للتدريب والدراسات والترجمة والنشر

mahaaratcentre@gmail.com

عدن

الفصل الأول

طريق الرمال

في أواخر ثلاثينيات القرن الماضي، كانت صحراء زمخ ومنوخ، في غرب حضرموت تمتد بلا نهاية تحت سماء زرقاء شاحبة، كأنها بحر متجمد من الرمال الصفراء. هناك، حيث لا يسمع المرء إلا حفيف الريح وهدير الصمت، شدّ الشيخ يسلم سلمان بن يربوع الرحال مع أسرته وقطيعه وقافلة جماله متجهًا نحو أسفل وادي حضرموت.

كان الشيخ يسلم رجلاً بدويًا طويل القامة، نحيل الجسد، أسمر البشرة من لفح الشمس، تتدلى من ذقنه لحية بيضاء خفيفة تراقصها الرياح. عيناه الضيقتان اعتادتا النظر بعيدًا نحو الأفق، حتى بدا كأنه يقرأ أسرار الطريق من خطوط الرمال. وعلى رأسه عمامة قطنية لفها بإحكام حول رأسه وعنقه اتقاءً لحرارة النهار ولسعات الرياح.

أما زوجته مبروكة فكانت امرأة قوية الملامح، حفرت السنوات أخاديدها حول عينيها، لكنها احتفظت بنظرة حادة لا تخطئ شيئًا. كانت تمشي خلف القطيع حاملة قربتها الجلدية، وتراقب الأغنام كما تراقب أبناءها.

تحركت القافلة قبل شروق الشمس بقليل. كانت الجمال تسير في صف طويل متمايل، تصدر من حناجرها أصواتًا غليظة متقطعة تختلط بصرير الأحمال المربوطة على ظهورها. وكلما غرست أقدامها العريضة في الرمل

الناعم، ارتفع غبار خفيف سرعان ما تبتلعه الريح مع الهسهسة الرقيقة التي ترسلها الرمال.

وأمام القافلة كان قطيع الغنم يتدفق كجدول أبيض متحرك. عشرات الرؤوس المنخفضة تبحث عن أي عشب يابس أو شجيرة صحراوية. تتعالى ثغاءاتها بين الحين والآخر، فتجيبها الحملان الصغيرة بأصوات مرتجفة. وكان للجد سالم كلب نحيل بني اللون يركض حول القطيع في دوائر واسعة، يعيد الشاردة إلى مكانها دون أن يحتاج إلى أمر.

كان الوقت صيفا ولم يكن البدو يسافرون في قيظ النهار. كانوا يسيرون في الساعات الأولى من الصباح، ثم يعاودون المسير بعد العصر وحتى حلول الظلام. أما وقت الظهيرة فكانوا يقضونه تحت ظل شجرة سمر أو إلى جوار كثيب مرتفع يحجب شيئًا من وهج الشمس.

كانت الرمال نفسها تتكلم. فعندما تهب الرياح الخفيفة فوق الكثبان تسمع همسًا خافتًا يشبه تنهدات بعيدة. وإذا اشتدت الريح ارتفعت حبات الرمل لتصطدم ببعضها في صوت يشبه فرك الحرير الجاف. وقد اعتاد أهل الصحراء تلك الأصوات حتى صاروا يميزون منها اقتراب العاصفة أو هدوء الطقس.

وسط القافلة كانت العنود، ابنة الشيخ يسلم الوحيدة، تركب على ظهر ناقة هادئة. كانت في السادسة عشرة من عمرها، ذات عينين واسعتين بلون التمر الداكن. غير أن

ابتسامتها التي عرفتها الصحراء اختفت منذ أسابيع، بعدما أصيبت قدمها اليسرى بجرح عميق من شوكة حادة أثناء رعي الغنم.

في البداية ظن الجميع أن الجرح سيلتئم سريعًا، لكنه ازداد سوءًا مع طول المسير. كانت العنود تحاول إخفاء ألمها، لكن وجهها كان يشحب كل مساء، وحين تنزل من الناقة تتكئ على أمها كي تستطيع الوقوف.

ظل الشيخ يسلم بن سلمان بن يربوع وقافلته يشقون الطريق أيامًا بين رمال زمخ ومنوخ، وقرية العقّاد الواقعة غرب مدينة شبام. وعندها انخفضت الكثبان، وظهرت بقع متفرقة من السدر والسمر، ثم بدأت الريح تحمل رائحة لم يألفها المسافرون منذ زمن طويل؛ رائحة الطين المبتل والماء الراكد وسعف النخيل اليابس

وفي الليلة التي سبقت وصولهم إلى شبام، سمع الجد صالح أنينها وهي تظن الجميع نائمين. جلس بجوارها صامتًا، ثم نظر إلى القدم المتورمة تحت ضوء النار الخافت. أدرك أن الطريق إلى تاربة ما يزال طويلاً، وأن الصحراء لا ترحم الضعفاء.

مع طلوع شمس اليوم التالي ظهر نخيل العقاد من بعيد كأنه جزيرة خضراء خرجت من قلب الرمال. وأخذت القافلة تقتربا منه شيئًا فشيئًا، بينما كانت العنود تحدق في المدينة بصمت، دون أن تعلم أنها في نهاية هذه الرحلة

سيكون نهاية عهدها بأسرتها، وبداية حكاية أخرى لم يكن أحد منهم يتوقعها.

-الوصول إلى شبام:

وكانت العنود تزداد وهنًا مع كل مرحلة. لم تعد تخفي ألمها كما كانت تفعل، وصارت تنظر إلى قدمها الملفوفة بخرقة قطنية في صمت، بينما تحاول أمها مبروكة أن تشغلها بالحديث عن قرب الوصول إلى أسفل الوادي، حيث الماء والناس والدواء.

مع انبلاج صباح اليوم التالي لاح في الأفق ما يشبه السراب، لكنه لم يكن سرابًا. ارتفعت من بين الخضرة كتل شاهقة من اللبن والطين، تتلألأ جدرانها العليا بلون أبيض تحت الشمس، حتى خُيّل للناظر أنها سفينة عظيمة أبحرت في بحر الرمال ثم رست هناك منذ قرون.

قال الشيخ يسلم وهو يحدق بعيدًا:

"إنها شبام... مدينة لا تشبه غيرها".

وكلما اقتربوا منها، اتسعت أمامهم أرض بدت كأنها تحمل آثار زمنين متباعدين؛ زمن كانت فيه الحقول ممتدة والنخيل باسقًا، وزمن آخر زحفت فيه الرمال فدفنت السواقي وابتلعت المزارع. كانت جذوع نخيل يابسة تبرز

من الرمل كعظام قديمة، وتتناثر بين الأشجار بقايا جدران من اللبن هدمتها السيول والعواصف، شاهدة على عمران رحل وأهله.

أما المدينة نفسها فكانت ترتفع خلف سورها الطيني المنيع في نظام مهيب، تحرسها الأبراج وتحيط بها الأسوار كأنها قلعة ولدت من رحم الأرض. وتعانقت بيوتها العالية ذات النوافذ الصغيرة حتى بدت كأنها بناء واحد، وقد زُينت طبقاتها العليا بطبقة من الجص الأبيض أضفت عليها بهاءً يخفف من خشونة الطين.

وعند مشارفها الشمالية الغربية، عند موضع يعرف بالجروب قريبًا من مقبرة جرب هيصم، أناخت القافلة رواحلها لتستريح ساعة قبل التوجه إلى أسفل الوادي. وكانت الشمس قد مالت قليلًا نحو الغرب، فألقت ظلالًا طويلة على الرمال المختلطة بحصى الوادي.

وبينما كان الشيخ يسلم يتفقد جمله، لمح رجلاً كان منهمكا في سقي جربه ثم استقام وتقدم نحوه بخطوات متأنية، متكئًا على عصا من الأثل. كان عريض المنكبين، قد غزا الشيب لحيته، لكن قسمات وجهه بقيت تحمل ملامح فتى عرفه منذ عشرات السنين.

توقف الرجل لحظة، ثم انفرجت أساريره وهو يهتف:

"أهذا أنت يسلم ابن يربوع؟"

رفع الشيخ رأسه، وتأمل القادم مليًا، ثم انطلقت ضحكة خرجت من أعماق الذكريات:

"عبود! عبود ابن عمشوش! أما زلت على قيد الحياة يا رجل؟"

وتصافح الرجلان بحرارة، ثم تعانقا طويلًا حتى خُيل لمن حولهما أن سنوات الفراق قد ذابت في تلك اللحظة.

قال عبود وهو يتأمل القافلة :

"بلغني أنكم قادمون من ناحية زمخ ومنوخ، لكنني لم أتوقع أن ألقاكم هنا".

وأشار الشيخ يسلم إلى العنود التي كانت لا تزال فوق ناقتها، وقال بصوت خافت:

"ابنتي أصابتها شوكة في قدمها، وظنناها هيّنة، لكنها استعصت على البرء".

اقترب عبود منها، فرأى الشحوب على وجهها، ثم هز رأسه في قلق وقال:

"لا تؤخروا الأمر. إن بقيتم في شبام فلن تستفيدوا كثيرًا. تحركوا من ساعتكم شرقًا إلى سيؤن، ففي مزرعة رواسة يقيم أقربائكم آل بن يربوع، وهم أهل خبرة بالأعشاب ومداواة الجروح، وقد عالجوا حالات استعصى أمرها على غيرهم".

سكت قليلًا ثم أردف:

"الطريق إلى سيئون آمن، ولن يستغرق منكم إلا بعض الساعات. أما القدم، فإن تركتموها حتى يتفاقم فسادها فقد تعجز الفتاة عن المشي زمنًا طويلًا".

نظر الشيخ يسلم إلى ابنته، فوجدها تخفض رأسها وتكتم أنينًا خافتًا. عندها لم يتردد، وأمر الرجال بشد الأحمال وإعادة تثبيت الأقتاب على ظهور الجمال.

وقبل أن يفترق الصديقان، وضع عبود يده على كتف صاحبه القديم وقال:

"إذا أكرمكم الله بشفاء العنود، فعودوا من هذا الطريق، فإن للذكريات علينا حقًا".

ابتسم الشيخ يسلم ابتسامة امتزج فيها الرجاء بالتعب، ولوّح لصديقه مودعًا، ثم تحركت القافلة من جديد بمحاذاة النخيل، تتجه شرقًا نحو سيئون، فيما كانت الشمس تميل ببطء خلف أبراج شبام، تاركة المدينة تغرق في لون ذهبي يشبه الحكايات القديمة.

الفصل الثاني

العنود في سيؤن

وصلت القافلة إلى سيؤن في تلك الساعة التي يتردد فيها النهار قبل أن يسلّم نفسه للمساء؛ ساعة يتحول فيها ضوء الشمس من بياض حادٍّ إلى ذهب متعب، فتبدو كل الأشياء أكثر وضوحاً وأكثر حزناً في آنٍ واحد. كان نخيل مزرعة رواسة يلوح من بعيد كحراسٍ طوال وقفوا في صفوف منتظمة منذ أمدٍ بعيد، سعفاتها تتمايل في نسيم الأصيل كأنها تُرحّب بمن أقبل وتودّع من سيرحل.

وكان الشيخ يسلم يعرف الطريق إلى دار آل بن يربوع معرفةَ من سلكه مرات، وإن كانت السنوات قد غيّرت بعض ملامحه. فالمسلك الترابي الضيق الذي يشقّ المزرعة لا يزال هو نفسه، تحفّه من الجانبين سواقٍ صغيرة تجري فيها بقايا ماء السقيا، وجذوع نخلٍ متقاربةً تتشابك سعفاتها فوق الرؤوس فتصنع سقفاً متقطعاً من الضوء والظل. أما الدار الطينية التي تقع في طرف المزرعة، حيث تنتهي النخيل وتبدأ الأرض المفتوحة، فكانت تطلّ بصمت الشيء الذي لا يحتاج إلى إعلان عن نفسه.

كانت الدار من تلك المباني التي تحمل في طينها روحَ من بناها ومن سكنها جيلاً بعد جيل. طابقان شيّدها الأجداد بصبر الرجل الذي يبني لِما بعده لا لنفسه وحده. جدرانها

العريضة في قاعدتها تضيق كلما ارتفعت نحو السماء، كأنها تجمع نفسها استعداداً للوصول إلى الأعلى. والطين الحضرمي البني الداكن الذي صُنعت منه قد شرب من شمس الوادي حتى صار أصلب من الحجر وأدفأ منه في آنٍ واحد. أما قمتها فكانت تُشهر نفسها في السماء الزرقاء بزخارف جيرية بيضاء تشبه التيجان المسنّنة أو الأصابع المرفوعة في إشارة لا تقرأها إلا السماء وحدها. وكان ذلك البياض الناصع في الأعلى بجوار البني العتيق في الأسفل يجعل الدار تبدو كأنها ترتدي عباءة الأرض وتضع على رأسها عمامة النور.

وفي فناء الدار الخارجي كانت شجرة سدر عجوز تُلقي ظلها الواسع على الأرض الطينية المكنوسة بعناية، وتحتها قعدةٌ من الطين ملساء من كثرة الجلوس عليها، تحكي وحدها تاريخاً طويلاً من الضيافة والأحاديث والصمت المشترك.

وقد سمع جمعان بن يربوع صوت القافلة قبل أن يراها. كان جالساً في الفناء الداخلي يُراجع في ذهنه حسابات المزرعة، فلمّا أدرك أذناه ذلك الصرير المألوف لأحمال الجمال، وتلك الطريقة المميزة التي كانت ناقة الشيخ يسلم تُعلن بها اقترابها من المنازل، نهض بخفةٍ لا تتناسب مع حجمه وسنّه.

كان جمعان رجلاً في الخمسين، ربع القامة متين البنية، وجهه الذي صهرته شمس حضرموت عقوداً متوالية يحمل ملامح من رأى الكثير ولا يزال مستعداً لرؤية المزيد. لحيته الكثيفة السوداء التي تخللتها خيوط بيضاء كالفضة كانت تزيده وقاراً لا يطلبه. وعيناه البنيتان الهادئتان كانتا من ذلك النوع الذي يرى أكثر مما يُظهر أنه يرى.

خرج من باب الدار مسرعاً ووراءه أخوه الأوسط سالم، رجلٌ نحيل طويل القامة يشبه النخلة في استقامتها وفي شيء من عزلتها أيضاً. وما إن وقعت عين جمعان على الشيخ يسلم حتى فتح ذراعيه وهو لا يزال على بُعد خطوات، وعلا وجهَه من البهجة ما لا يتكلف:

ـ حيّاك الله يا شيخ يسلم، وأهلاً وسهلاً بك في هذه الديار!

نزل الشيخ يسلم من ناقته بحركة واحدة رغم ما في ركبتيه من أوجاع الطريق الطويل، والتقى الرجلان في معانقة أطال فيها كل منهما أكثر مما تقتضيه المجاملة. كانت تلك معانقة من يعرف قيمة من يعانقه.

ـ الله يسلّمك يا جمعان. وأهل الدار بخير؟

ـ بخير والحمد لله. وأنت وأهلك؟

توقف جمعان حين تحوّل بصره نحو الناقة التي كانت العنود فوقها، فرأى ما لم يكن يودّ رؤيته: وجهاً شاحباً

وعينين فيهما تعب يتجاوز عناء السفر. نظر إلى الشيخ يسلم نظرة استفسار خافتة، فأجابه الشيخ بكلمات قليلة ثقيلة كأنه يضع حجارة واحدة واحدة:

ـ أصابت العنود في قدمها جرح لم يلتئم بعد. وجئنا نستجير بكم.

أومأ جمعان إيماءة الرجل الذي فهم كل شيء ولا يحتاج إلى مزيد من الشرح:

ـ أهلاً وسهلاً ومرحباً. هذه داركم.

وكان كرامة، أصغر الإخوة، قد خرج بدوره؛ شابٌّ في الثلاثين وجهه منفتح كالصبح، أخذ زمام ناقة العنود برفق وأشار إلى الفتيان أن يُسرعوا في مساعدة القادمين.

وحين حاولت العنود أن تنزل من ناقتها وحدها، كعادتها التي لم تتخلَّ عنها طوال الرحلة إباءً أو إنكاراً للألم، خانتها قدمها في اللحظة التي وطئت فيها الأرض. تشبثت بجانب الرحل لكن ركبتيها خذلتاها فانحنت، فأسرع أبوها وأمسك بذراعها قبل أن تسقط.

نظرت إليه نظرةً فيها شيء من الخجل وشيء أكبر منه من الألم، فلم يقل شيئاً. أومأ بصوت هادئ فجاء كرامة من جهة وأمسك بالجهة الأخرى، وحملا العنود بين أيديهم نحو باب الدار حملاً رفيقاً حذراً كأنهم يحملون شيئاً قابلاً للانكسار.

دخلت مبروكة أمامهم تشقّ الطريق وتفتح الأبواب. وكان بيت جمعان بن يربوع من الداخل أكثر دفئاً مما يوحي به ظاهره. جدران الطين التي تبدو من خارجها صارمة كانت من الداخل تنضح بدفء ساكن يختلف عن دفء الشمس؛ دفءٌ مختزن من سنين طويلة من الحياة المشتركة، من الخبز المطبوخ والعجين الممزوج والنيران المشعلة في ليالي الشتاء. وكانت الأعمدة الخشبية المنحوتة بعناية تحمل السقف بصمت الرجل القوي الذي لا يشكو من ثقل ما يرفعه.

وُضعت العنود على فراش وطيء في الغرفة التي خصّصها جمعان لضيوفه. فراشٌ من القطن المحلوج مغطى بلحاف مطرّز بخيوط حمراء وزرقاء تشيّ بيد امرأة صبورة أمضت شتاءين في نسجه. استلقت العنود وأغمضت عينيها للمرة الأولى منذ أيام باستسلام تام، كأن الوصول إلى هذا المكان أذن لها بأن تتوقف عن المقاومة ولو إلى حين.

لم تكن زوجة جمعان، أم سالم، من النساء اللواتي ينتظرن أن يطلب منهن أحد شيئاً. رأت العنود حين حُملت عبر الباب، ورأت القدم المغلفة بذلك القماش الداكن المتشرب بالصديد والزيت معاً، ورأت لون الجلد حول الجرح الذي بدأ يتخذ صبغة لا تطمئن. ففعلت ما تفعله النساء اللواتي

تعلّمن الطب من أمهاتهن واللواتي تعلّمنه من أمهاتهن قبلهن: توجّهت مباشرة إلى خزانتها دون إبطاء.

كانت أم سالم امرأة في الأربعين، غير أنها تبدو أصغر وأكبر في آن، بحسب اللحظة التي تقف فيها. تبدو أصغر حين تضحك بصوت يملأ الغرفة، وأكبر حين تتفحص جرحاً أو تشمّ عشبة أو تُصدر حكمها على مرض. عيناها السوداوان الثاقبتان كانتا من ذلك النوع الذي لا يُفوته شيء، ويداها الصغيرتان الحازمتان لا تتردّدان حين يستدعي الأمر العمل.

جلست بجوار العنود وحلّت القماش عن قدمها بحركات بطيئة محسوبة كأنها تفتح كتاباً تقرأه لأول مرة. وحين رأت الجرح لم تُبدِ على وجهها قلقاً، غير أن عينيها تبادلتا لحظةً خاطفة من التركيز الذي لا يخفى على من يعرفهما.

قالت بنبرة مطمئنة موجَّهة إلى مبروكة التي كانت واقفة في زاوية الغرفة بأصابع مشبوكة:

ـ لا خوف عليها، بإذن الله. بيد أننا ينبغي أن نبادر بالعلاج قبل أن يتمادى هذا الاحمرار.

أحضرت من خزانتها العتيقة المصنوعة من خشب السدر، تلك الخزانة التي كان عطرها وحده كافياً لاستحضار ذاكرة الأمراض والعلاجات، أحضرت كومة من أوراق القرضي المجففة ذات اللون الأصفر الداكن، وعلبة صغيرة من

عسل السدر الحضرمي الثقيل الذي كان لونه كالذهب العتيق، وكيساً من مسحوق الكركم الذي اصطبغت به كفّاها حين احتكّتا به بلون يشبه غروب الشمس.

وقالت وهي تعجن العسل مع المسحوق بأصابعها بحركة دائرية متأنية:

ـ أوراق القرضي تمسح الجرح وتسحب منه ما تراكم فيه من فساد. والكركم يُخمد الحرارة المتأججة تحت الجلد. ثم نلفّ القدم بخرقة نظيفة مبللة بالماء والملح، فذلك يُغلق الجرح على دوائه ويمنعه من الانتكاس.

سألت مبروكة بصوت خفيض كأنها تخشى أن تسمعها ابنتها:

ـ أيُرجى لها الشفاء؟

رفعت أم سالم رأسها ونظرت إليها مباشرة بعينين لا تجاملان ولا تقسوان:

ـ بإذن الله يكتمل برؤها. غير أنها تحتاج إلى أيام من الراحة التامة، والراحة وحدها نصف الدواء.

ابتلعت مبروكة شيئاً كان قد صعد إلى حلقها، وأومأت برأسها إيماءة المرأة التي تقبل ما لا حيلة لها فيه.

أما الشيخ يسلم فقد ظلّ في المجلس الخارجي مع جمعان وسالم وكرامة بعد أن فرغوا من عشائهم. كان القمر قد طلع بدراً فوق نخيل رواسة، يسكب ضوءه الفضي على الأرض الطينية المبللة بماء السقيا، فبدت المزرعة في تلك الساعة كلوحة رسمها فنان لا يعرف الإسراف ولا يحتاج إليه. وكانت نار خفيفة مشعلة في وسط المجلس تُكمل ما قصّر عنه ضوء القمر، وتُضفي على وجوه الجالسين ذلك اللون الأحمر الدافئ الذي يجعل الكلام أيسر والصمت أعمق.

كان البُن قد دار في الفناجين مرتين، وكانت رائحة الهيل المتصاعدة منه تختلط بعطر الليل الحضرمي، ذلك المزيج الغريب من رطوبة التربة وأريج النخيل وبرودة الهواء النازل من الجبل. أدار الشيخ يسلم فنجانه بأصابعه ببطء دون أن يشرب، وكان ذلك عنده علامة على أن في صدره كلاماً يُرتّبه قبل أن ينطق به.

قال أخيراً بصوت هادئ كهدوء الرجل الذي اتخذ قراره ولا ينتظر موافقة بل يطلب مساعدة:

ـ يا جمعان، في نفسي كلام أودّ البوح به.

ـ تفضل يا شيخ يسلم، قال جمعان وهو يضع فنجانه جانباً ويمنح ضيفه كامل وجهه وانتباهه.

ـ العنود لا تقوى على مواصلة الطريق معنا في حالها هذه. والمسير إلى تاربة ليس بالهيّن. وأنا لا أطيق أن أراها فوق الناقة وفيها ما فيها من الوهن والألم.

صمت لحظة ثم أكمل بنبرة من يضع أثمن ما يملك في يد من يثق به:

ـ أودّ أن أتركها في كنفكم حتى يتمّ شفاؤها. فهل في ذلك حرج عليكم؟

لم يتردد جمعان ولم يستشر أخويه بنظرة، بل أجاب بتلك السرعة التي تُجيب بها الطبيعة الكريمة لا التكلف المصطنع:

ـ هذا شرف لنا يا شيخ يسلم. والله لن تقوم من فراشها حتى تمشي على قدمين معافاتين.

أومأ سالم بهدوئه المعهود وقال بجملة واحدة كانت تساوي خطاباً:

ـ دارنا دارها، وأهلها أهلنا.

أما كرامة فقد ابتسم تلك الابتسامة الفتية التي تجعل وجهه يبدو دائماً كأنه يحمل خبراً سعيداً لم يُعلنه بعد، وقال:

ـ وأم سالم لن تدعها تحمل همّها وحدها، فهي تُحسن من أمر الطب ما يعجز عنه كثير من الرجال.

ضحك الشيخ يسلم ضحكة خافتة كانت في حقيقتها زفرة ارتياح طال احتباسها، ثم مدّ يده إلى يد جمعان ومسكها بكلتا يديه مسكة من يودع لا من يصافح:

ـ جزاكم الله خيراً يا ابن العم. لن أنسى هذا الجميل ما حييت.

قال جمعان وهو يردّ الضغطة بضغطة أشد:

ـ نحن وأنت يا شيخ يسلم شيء واحد، وما بيننا أعظم من أن يُذكر فيه الجميل.

وبقيت النار تتكلم بلغتها الخاصة بين الرجال، وكان الليل يسمع ويحفظ.

في صباح اليوم التالي، حين أزمع الشيخ يسلم الرحيل متجهاً غرباً نحو وادي بن سلمان في تاربة، أصرّت العنود على أن تجلس في فناء الدار الخارجي لتودّع القافلة. جلست على القعدة الطينية تحت شجرة السدر، قدمها المعصوبة ممدودة أمامها، ووجهها يحمل شيئاً يشبه التحسن الطفيف الذي منحتها إياه ليلة من النوم الحقيقي والعلاج الرفيق.

كانت تنظر إلى الأغنام وهي تُجمع استعداداً للرحيل. كانت تعرف كل واحدة منها معرفة الأم لأبنائها؛ تعرف تلك

النعجة التي تسير دائماً في المقدمة كأن لها رأياً في الاتجاه، وتعرف ذلك الحمل الذي وُلد في ليلة ماطرة وظلت تحمله على ذراعيها حتى أحسّ بالدفء واطمأن، وتعرف تلك الشاة السوداء التي تُبالغ في الثغاء عند كل توقف كأنها تشكو من شيء لا يدركه أحد سواها.

حين اقتربت مبروكة منها لتودّعها، نهضت العنود على قدمها الصحيحة متكئة على الجدار، وقالت بصوت ثابت لم تتوقعه أمها من فتاة في حالها:

ـ يا أمي.

ـ نعم يا بنيّة؟

ـ أغنامي السبع عشرة، أرجو أن تُفرزيها من القطيع قبل أن تُشدّوا الرحال.

نظرت مبروكة إليها باستغراب مكتوم:

ـ وما الذي تنوين فعله بها؟

قالت العنود بهدوء من لا يرى فيما تقوله ما يستدعي التفسير:

ـ اتركيها هنا عند جمعان وأهله. فهم يمكن أن يساعدوني على رعيها.

أطالت مبروكة النظر في وجه ابنتها. كانت ترى فيه شيئاً لم ينتبه إليه أحد من قبل، أو ربما كان موجوداً دائماً لكن

الأيام لم تكن قد كشفت عنه بعد: كان وجه امرأة لا وجه فتاة. كان فيه شيء من صرامة الأرض الحضرمية التي لا تعطي إلا حين تقدر وحين تختار بمحض إرادتها.

لم تجادلها مبروكة. ذهبت إلى القطيع وفرزت السبع عشرة رأساً بيديها بينما العنود تراقب من مكانها بعينين تتحقق أن كل واحدة في موضعها الصحيح. وحين اكتملت العملية التفتت العنود إلى كرامة الذي كان واقفاً على مقربة وقالت بنبرة فيها من الرزانة ما يفوق سنّها:

ـ يا جمعان، هذه أغنامي. أتركها أمانة في يدكم.

وقف جمعان وقد أخذته المفاجأة لحظة، ثم قال بجدية لا تخلو من حرارة:

ـ الأمانة مقبولة يا بنت آل يربوع، وعهد الله أن نحافظ عليها.

حين تحركت القافلة أخيراً وخطا الجمل الأول خطواته الأولى نحو الطريق الغربي، كانت العنود تُتابع بعينيها الأغنامَ السبع عشرة وهي تتفرق بين النخيل بلا اكتراث، كأنها كانت تنتمي إلى هذا المكان منذ الأزل. ولم تبكِ العنود. غير أن يدها اليمنى ضغطت على حجر القعدة الطينية بجوارها ضغطة صامتة لم يرها أحد، ولم يكن أحد ليفهم معناها إلا هي وحدها.

-العنود في رواسة:

في تلك الأيام التي فصلت بين رحيل الشيخ يسلم وعودته، كانت مزرعة رواسة تصنع من العنود شيئاً مختلفاً. لم يكن ذلك علاجاً بالمعنى الذي يُكتب في وصفة أو يُؤخذ بجرعات محددة. كان شيئاً أعمق وأهدأ؛ كانت الأرض نفسها تُسهم في الشفاء.

كانت أم سالم تأتي كل صباح بعد صلاة الفجر، تحمل في يدها كوباً من مغلي الأعشاب تسبقه رائحته من باب الغرفة. مغليٌ من أوراق الحنّاء المطبوخة مع قشر الرمان المجفف وبذور الحبة السوداء، تسقيه العنود بصبر المرأة التي لا تعرف اليأس ولا تُقرّ بوجوده. وكانت تُغيّر الضماد على الجرح مرتين في اليوم؛ تُنظفه أولاً بالماء الدافئ المملح، ثم تضع فوقه طبقة رقيقة من عسل السدر مخلوطاً بمسحوق الكركم، ثم تلفّه بقماش كتاني أبيض نظيف تُحكم ربطه دون أن تشدّه.

وفي المساء، حين يخفت الحر ويتنفس الوادي بعد نهار طويل، كانت بنات المزرعة يجلسن مع العنود في الفناء تحت النخيل، يتحدثن بذلك الحديث الذي لا موضوع له إلا الحياة نفسها بتفاصيلها الصغيرة. وكانت العنود تصغي أكثر مما تتكلم، وتضحك في اللحظات التي لا تتوقع فيها من نفسها أن تضحك.

وشيئاً فشيئاً، كما تلتئم الأرض بعد أن شقّها المطر وملأ صدعها، بدأ الجرح يتراجع. بدأ اللون الغريب يتلاشى من حافاته، وبدأت الحرارة المقيمة تحت الجلد تبرد، وبدأت العنود تضع قدمها على الأرض بثقة متزايدة يوماً بعد يوم، كمن

كمن يتعلم شيئاً كان يعرفه ثم أنساه الألم، فهو يستعيده لا يكتشفه.

وفي اليوم الثالث والعشرين من إقامتها في رواسة، مشت العنود من غرفتها إلى فناء الدار وحدها دون أن تستعين بجدار أو يد. لم تقل شيئاً لأحد. غير أن أم سالم التي رأتها من النافذة رفعت يديها إلى السماء وقالت بصوت لم يتكلف الخفوت:

ـ الحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات.

في صباح ذلك اليوم الذي عاد فيه الشيخ يسلم إلى سيؤن، كانت مزرعة رواسة تنضح بنور الفجر الحضرمي، ذلك النور الذي لا يشبهه نور في دفء احمراره الأول ونقاء الهواء الذي يصحبه. كانت أشجار النخيل تقف في صمتها المعتاد والندى لا يزال يلمع على سعفاتها كحبات مبعثرة من اللؤلؤ الصغير.

سمعت العنود صوت القافلة قبل أن تراها. فنهضت بخفة لم تعرفها منذ أشهر وخرجت إلى الفناء على قدمين تحملانها بثقة هادئة راسخة. وحين رأت أباها نازلاً من ناقته بتلك الحركة المعتادة التي تحفظها عن ظهر قلب، أسرعت نحوه بخطوات لم تتردد ولم تحسب.

توقف الشيخ يسلم حين رآها قادمة. توقف وقفة الرجل الذي يريد أن يمنح عينيه الوقت الكافي لحفظ ما يريان، لأنه يعلم أن بعض المشاهد لا تتكرر وأن الذاكرة وحدها هي الوعاء الأجدر بها. ثم أمسك بكتفيها بيديه الكبيرتين ونظر في وجهها طويلاً بعينين أوسعتهما الدهشة والامتنان معاً.

ـ الحمد لله، قال بصوت خشن من الانفعال المكبوت الذي لم يدعه يخرج كاملاً.

ـ الحمد لله يا أبي، أجابت هي بابتسامة عادت إليها كما يعود الماء إلى مجراه بعد انحسار.

وفي تلك اللحظة رأى خلفها جمعان وسالم وكرامة واقفين في باب الدار، فذهب إليهم وأمسك يد جمعان بحرارة ورجّها بالطريقة التي لا تحتاج إلى كلمات لأن الكلمات ستكون أقل مما تعنيه وأصغر مما تستحقه.

**

غير أن الشيخ يسلم لاحظ، وهو يتجه نحو باب الدار، أن ثمة رجلين لم يكونا هنا حين غادر. رجلان جالسان في ظل الفناء بمظهر المقيم لا العابر. وما إن وقعت عيناه على الأول حتى توقف وعلا وجهه ما يعلوه حين يرى ما لا يتوقع أن يراه في مكان لا يتوقعه؛ إنه عبود ابن عمشوش.

ذلك الرجل الذي شاركه الشيخ يسلم أيام الشباب وتقلباته، الذي جمعتهما الصحراء بطريقتها الخاصة في ربط الأرواح التي تستحق الارتباط. كان عبود قد تغير بعض الشيء منذ آخر لقاء جمعهما في الجروب قرب شبام، لكن في عينيه تلك الشعلة التي لا تُخطئها العين في وجه رجل لا يزال يرى الحياة بفضول الشاب وحكمة الشيخ في آن.

تعانق الرجلان معانقة من تفصل بينهما المسافات لكن لا يفصل بينهما شيء آخر. ثم أشار عبود إلى الرجل الجالس بجواره إشارة المقدِّم لا المعرِّف:

ـ هذا أخي الأصغر سعيد.

نظر الشيخ يسلم إلى سعيد. كان شاباً في الخامسة والعشرين، طويل القامة نحيلها، وجهه الأسمر يحمل ملامح أخيه لكن بنعومة السنين الأقل والتجربة التي لم

تكتمل بعد. عيناه الواسعتان فيهما شيء يشبه الجدية الهادئة، وفي مشيته حين نهض لتحية الشيخ يسلم خطوة رجل يعرف أين يضع قدمه.

جلس الرجال في المجلس وتجاذبوا أطراف الحديث في الأمور الظاهرة، وكان البُن يدور بينهم والكلام يسير في مساره الطبيعي. غير أن الشيخ يسلم أحسّ بشيء يسري تحت سطح ذلك الحديث العادي كما يسري الماء تحت الرمل. شيء لم يُقَل بعد لكنه حاضر في كل جملة وفي كل صمت يتخلل الجمل.

وحين خلا المجلس من كرامة وسالم لشأن عرض لهما، ولم يبقَ إلا جمعان وعبود والشيخ يسلم، تنحنح عبود بالطريقة التي يتنحنح بها الرجل حين يريد أن ينتقل من الكلام العام إلى الكلام الذي جاء من أجله، وقال:

ـ يا أخي يسلم، بيني وبينك من العمر والصداقة ما يُجيز لي أن أتكلم بلا دوران.

ـ تكلم يا عبود، وكلامك مسموع دائماً، قال الشيخ يسلم وقد استقام في جلسته.

ـ رأيت العنود اليوم وقد منّ الله عليها بالشفاء. ورأيت فيها ما يراه كل ذي بصيرة من حسن الخلق والأصل الكريم. وأخي سعيد رجل مستقيم يملك قطعة أرض صغيرة

قريبة من هنا وعنده ما يكفيه ويكفي من يُكرمه الله بها. وأنا جئت اليوم خاطباً، يا يسلم، أطلب العنود لأخي سعيد.

نزل الكلام على الشيخ يسلم نزول المطر على أرض كانت تنتظره دون أن تعلم. لم يُجب فوراً، بل أطرق قليلاً بعينين تقرآن في الأرض أمامه ما لا يقرأه الآخرون. كان يُفكر بطريقة الرجل الذي يعلم أن بعض القرارات تُبنى عليها أعمار كاملة فلا يجوز فيها التسرع ولا يجوز فيها التأخر.

ثم رفع رأسه ونظر إلى عبود بعيون صافية وقال:

ـ كلامك يا عبود كلام أهل وليس كلام غرباء. وسعيد رجل أشهد أن فيه الخير. غير أن العنود بنتي الوحيدة، وما كان لي أن أقطع في أمرها دون أن تعلم وترضى. فإن رضيت فرضاي تابع لرضاها.

أومأ عبود إيماءة الرجل الذي كان يتوقع هذا الجواب بل كان يأمله:

ـ هذا هو الكلام الصحيح يا يسلم، وما كنت أنتظر منك غيره.

ذهبت مبروكة إلى غرفة ابنتها في تلك الساعة التي يكون فيها النهار في منتصف طريقه نحو الأفول. كانت العنود جالسة تمشط شعرها الطويل الداكن بمشط خشبي قديم

كان قد أهدته إياها أم سالم. رأت وجه أمها من المرآة المعلقة على الجدار قبل أن تسمع صوتها فأدركت في الحال أن ثمة كلاماً قادماً يختلف عن الكلام المعتاد.

أحكمت مبروكة إغلاق الباب خلفها وجلست قرب ابنتها وأخذت بيدها. لم تُقدّم ولم تُمهّد بل قالت بالمباشرة التي تتكلم بها النساء الحضرميات في الأمور الجوهرية:

- يا بنيتي، عبود بن عمشوش هنا. وهو يطلبك لأخيه سعيد.

لم تتحرك العنود. لم تسقط المشطة من يدها ولم يتغير تعبير وجهها تغيراً مفاجئاً. فقط توقفت يدها عن حركة التمشيط وبقيت معلقة في الهواء لحظة ثم نزلت ببطء إلى حجرها.

نظرت إلى أمها نظرة طويلة كانت فيها أسئلة كثيرة لم تنطق بها لأن أمها أجابت عنها قبل أن تُطرح. ثم سألت بصوت هادئ كالماء العميق:

- وأبي؟

- أبوك قال إن رضاه تابع لرضاكِ.

صمتت العنود صمتاً ليس فراغاً بل ملأى بشيء يتشكّل. ثم نظرت من النافذة الصغيرة إلى ما تبقى من ضوء النهار

على سعف النخيل، وقالت بنبرة من أنهت تفكيرها ووصلت إلى شاطئه:

ـ سعيد رجل أهله أهل. وما رأيت في أهله إلا الخير منذ اليوم الأول. وما كنت لأرفض ما يرضاه أبي ويراه خيراً.

أمسكت مبروكة بيد ابنتها وضغطتها بما لم تستطع قوله بلسانها وكان قلبها يقوله بلغته الخاصة.

انتشر الخبر في رواسة وحي القرن انتشار الماء في الأرض الظمأى. وكان جمعان بن يربوع أول من تحرك حين علم، فأرسل رسله إلى الجيران وإلى أهل سيؤن من أصحابه وأقاربه، وأمر بإعداد ما يلزم بتلك الطبيعة العفوية التي يستعدّ بها أهل حضرموت للأفراح كما يستعدون للواجبات، بلا تكلف ولا تقصير.

في تلك الليلة، حين اجتمع الرجال في فناء الدار الرحب تحت سماء نثرت نجومها بسخاء حضرمي معهود، وحين أُضيئت المصابيح على أطراف الفناء فجعلت من الظلام المحيط إطاراً لا حاجزاً، جلس الشيخ يسلم وعبود بن عمشوش وجمعان بن يربوع في صدر المجلس وبينهم من سنّهم وتجربتهم ما يجعل المكان مكانه. وجلس سعيد بجوار أخيه بهدوء الرجل الذي يعيش لحظة فارقة ويعرف ذلك، فلا يستهين بها ولا يطغى عليها بما لا تحتمله.

تلا القاضي الفاتحة وتلاها الجميع بأصوات متفاوتة في العلو متحدة في المعنى. ثم جرى العقد بكلمات قليلة موزونة كأحجار البناء الجيدة، كل كلمة في موضعها ولا كلمة زائدة. قال الشيخ يسلم بصوت مكين ثابت كصوت الرجل الذي يقول كلاماً بنى عليه طويلاً:

ـ زوّجتك ابنتي العنود بنت يسلم بن سلمان على ما أوجبه الله وسنّة رسوله الكريم.

فأجاب سعيد بصوت فيه من الرجولة الهادئة ما يكفي:

ـ قبلتُ هذا الزواج المبارك على ما أوجبه الله وسنة رسوله.

وكان الهواء الليلي في تلك اللحظة قد توقف عن الحركة للحظة قصيرة كأنه هو الآخر ينتبه لما يجري، ثم عاد يتنفس حين ارتفعت الأصوات بالتهنئة والدعاء.

ـ بالرفاه والبنين!

ـ الله يبارك لكم ويبارك عليكم!

ـ مبروك للعريس ومبروك للعروس وأهليهما الكرام!

وكانت الأصوات تتصاعد وتتداخل وتملأ الفناء حتى وصلت إلى النخيل الواقفة في الظلام فأطربتها بما لا يُطربها الريح.

في فجر اليوم التالي، حين كان النجم الأخير لا يزال معلقاً في السماء وكان الأفق قد بدأ يتلوّن بأول حمرة الصبح، استيقظت المزرعة على صوت التكبير. كان جمعان قد أمر بإعداد الذبائح من الليل، وكانت الخرفان قد أُفردت في زريبة صغيرة بجوار الدار، تنتظر بهدوء لا يعلم صاحبه ما ينتظره.

وقف كرامة وبعض رجال المزرعة في الفناء الخارجي حيث كانت الأرض قد نُظّفت ورُشّت بالماء. وحين أشرق أول ضوء النهار الحقيقي وتبيّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود، رفع الرجل المكلف بالذبح يده بسكينه وقال باسم الله، فخرجت الأرواح بالطريقة التي أمر بها الله؛ سريعة لا تُطيل وكريمة لا تُهين.

ارتفع البخار من الدماء الدافئة في هواء الفجر البارد كأعمدة بيضاء شفافة تصعد نحو الأعلى وتتلاشى. وكان ذلك المشهد في تلك الساعة بالذات يحمل شيئاً يشبه الطقس القديم الذي تتجاوز فيه الحياة نفسها لتُشير إلى ما هو أكبر منها.

بدأت النساء عملهن بعد الذبح مباشرة. تجمّعن في المطبخ الكبير الملحق بالدار، ذلك المطبخ الذي كانت جدرانه الطينية قد اسودّت من أعلاها من دخان سنين طويلة من الطبخ والسهر، واتخذت تلك السواد طابع الشرف لا الإهمال. أشعلن النار تحت القدور الكبيرة النحاسية التي

كان بريقها قد خفت من كثرة الاستعمال لكنها احتفظت بمتانتها كأنها صُنعت لهذه الأيام.

أكبر تلك القدور، تلك التي كانت تحتاج إلى يدين قويتين لتحريك ما فيها، ملأتها أم سالم ومن معها باللحم المقطّع إلى أجزاء كبيرة سخية. ثم جاء الماء من بئر المزرعة العذبة فغطّى اللحم وزاد. ثم بدأت إضافة التوابل بأيدٍ تعرف مقاديرها معرفة لا تحتاج إلى ميزان:

الهيل المطحون الذي ملأ عطره المطبخ كله في اللحظة التي لمس فيها الماء الساخن. والكركم الذي صبغ المرق بلونه الذهبي الداكن صبغة تجعله يبدو كأنه يحمل قطعة من ضوء الشمس في داخله. والكمون الذي أضاف إلى العطر عمقاً لا يُعوّض عنه. والقرفة التي ألقت فيه دفئها المميز دفء الشيء الذي ينتمي إلى الأرض الطيبة. وحبات الفلفل الأسود المطرقة طرقاً خفيفاً لا تُحوّلها إلى مسحوق بل تكسر ظهرها فتُطلق ما فيها دون أن تُفقدها هويتها. والبصل المقطوع إلى أنصاف الذي يذوب شيئاً فشيئاً في المرق كأنه يتخلى عن نفسه ليصبح جزءاً من شيء أكبر.

ثم غُطّيت القدور وتُركت على النار بذلك الصبر الحضرمي الذي يعرف أن أشياء كثيرة في الحياة لا تستعجل وأن الطعام الجيد كالإنسان الجيد؛ يحتاج وقته كاملاً ليكتمل.

وفيما كانت القدور تئن بصوت خفيض منتظم كأنها تحدث نفسها، كانت نساء أخريات يُعددن الأرز. كان الأرز الحضرمي ذلك الحبّ الطويل الأبيض الذي ينتفخ في الطبخ حتى يصبح كل حبة منه صغيرة ومستقلة لا تلتصق بأختها، ينقّى بالأيدي حبة حبة من أي شيء غريب تخللّه، ثم يُنقع في الماء الدافئ حتى يليين ويستعد. وكانت رائحة السمن الحضرمي التي أضيفت إليه حين بدأ طبخه تخرج من المطبخ وتتسلل إلى الفناء وإلى النخيل ثم إلى الطريق، فتستدعي من كان بعيداً قبل أن يُدعى.

وخارج المطبخ، في ركن الفناء الكبير، كان رجلان يُعدّان البُن بالطريقة التي لا تقبل الاختصار. كانت حبات البُن الخضراء تُحمص أولاً في مِحماسة الحديد المسطحة فوق جمر هادئ متساوٍ، ويُحرّكها رجل بيده في دورات بطيئة منتظمة لا تتوقف لأن التوقف يعني احتراق ما في أسفلها وبقاء ما في أعلاها نيئاً. وكان للبن في تلك المرحلة لون رمادي ثم يتحول إلى بني فاتح ثم إلى بني داكن يفوح منه عطر يشبه عطر الأرض حين تُمطر أول مطر. وحين يصل إلى لونه الصحيح يُنزل عن النار ويُسكب في الهاون النحاسي الكبير، فيبدأ الدقّ بمدقّ ثقيل في إيقاع منتظم يصدر من الفناء ويصل إلى كل أذن في المزرعة. وكانت لذلك الإيقاع لغة يفهمها أهل حضرموت دون أن يتعلموها: لغة تقول إن ثمة فرحاً يُصنع وثمة ضيافة تُعدّ وثمة يوماً مختلفاً عن سائر الأيام.

ثم يُطحن البُن مع الهيل بنسبة يعرفها من دقّه معرفة الموروث لا المكتوب، ويُوضع في الدلال النحاسية الطويلة الرشيقة التي كانت بريقها النحاسي يعكس لهيب النار في الليل كمرايا صغيرة متحركة. ويُغلى بالماء غليةً أولى ثم يُنزل ثم يُعلى من جديد حتى يكتمل لونه الذهبي الخفيف ذلك اللون الذي ليس بالأصفر الفاتح الذي يعني أن البن لم ينضج، وليس بالبني الثقيل الذي يعني أنه أفرط في الغليان، بل ذلك اللون الوسط الذي لا يصفه اللسان كما تصفه العين.

وكانت الفناجين الصغيرة المزخرفة، تلك التي لا مقبض لها وتُمسك بأطراف الأصابع، تُصفّ على الصينية بنظام يعكس احتراماً للضيافة وفهماً لمعناها. فالفنجان الأول يُعطى للأكبر سناً أو الأرفع مقاماً، والبن يُصبّ بارتفاع خفيف عن الفنجان ليُحدث رغوة خفيفة تزيده جمالاً، ولا يُملأ الفنجان إلا إلى ثلثيه احتراماً للضيف وإشارةً إلى أن الكرم لم ينته وأن الإعادة حق له لا منّة.

حين اكتمل الطهي وامتلأت القصاع الكبيرة بالأرز المنفوش الذي علاه المرق الذهبي اللون وفوقه قطع اللحم التي احمرّت من الخارج واحتفظت بنداوتها من الداخل، حُملت القصاع إلى فناء الدار بأيدٍ معتادة على حملها وقلوب سعيدة بما تحمل.

جلس الرجال حول القصاع على الأرض بالطريقة الحضرمية التي لا تحتاج إلى كراسٍ ولا موائد مرتفعة؛ الأرض نفسها هي المائدة وهي الكرسي وهي الفراش حين يحلّ النوم. وكانت الأيدي تمتد إلى القصعة بتلك الطبيعية التي تجعل الأكل المشترك فعلاً أعمق من مجرد تناول الطعام، فعل يقول بلا كلمات إن من يأكل معك من قصعتك هو أخوك سواء جمعتكما رحم أو جمعكما طريق.

جلس الشيخ يسلم وعبود بن عمشوش جنباً إلى جنب كما جلسا كثيراً في شبابهما أمام قصاع أخرى في أماكن أخرى. وجلس سعيد بجوار جمعان وفي عينيه من الرضا ما لا يحتاج إلى إعلان. وجلس كرامة وسالم وبقية رجال المزرعة وبعض الجيران الذين أتوا حين وصل إليهم الخبر بتلك السرعة التي تنتقل بها الأخبار السعيدة في حضرموت.

وكان البُن يدور على الجميع في إيقاع لا ينقطع. يُصبّ ويُشرب ويُصبّ مرة أخرى. وكانت المحادثات تتشعب وتتقاطع من حديث المزرعة والنخل إلى حديث السفر والطريق إلى ذكريات تستدعي ذكريات حتى كأن المجلس لم يكن احتفالاً بزواج فحسب بل كان تجميعاً لخيوط متفرقة من تاريخ مشترك طويل.

وفي ركن المطبخ، حيث لا يراهن الرجال، كانت النساء يأكلن بعد أن أتممن إطعام الجميع، بتلك الأريحية

الحضرمية الأنثوية الخاصة. وكانت أم سالم تجلس بجوار العنود وتضع في صحنها قبل أن تضع في صحن نفسها. وكانت العنود تأكل بشهية لم تعرفها منذ أشهر، شهية من عاد جسده إلى توازنه وروحه إلى طمأنينتها بعد طول انتظار.

كانت النساء يتحدثن بينهن بذلك الحديث الذي لا تسمعه إلا النساء، حديث فيه من الدفء والمزاح الرقيق والحكمة المبثوثة في ثنايا الكلام العادي ما يجعل مجالسهن مدارس لا تُعقد فيها دروس لكنها تُعطي علماً لا يُنسى. وكانت العنود تسمع وتبتسم، وأحياناً تضحك بصوت خفيف كان يصل إلى الفناء الخارجي فيجعل بعض الرجال يتوقفون عن كلامهم لحظة دون أن يعرفوا لماذا توقفوا.

وحين مال النهار نحو نهايته وبدأت ظلال النخيل تمتد على الأرض امتداداً بطيئاً كأنها تسترخي بعد يوم طويل، خرج الشيخ يسلم من المجلس وجلس وحده على القعدة الطينية تحت شجرة السدر. كان يحتاج إلى تلك اللحظة بينه وبين نفسه، تلك اللحظة التي يقف فيها الإنسان على عتبة ما انتهى ليلتفت إليه قبل أن يخطو نحو ما لم يبدأ بعد.

نظر إلى المزرعة من حوله؛ إلى النخيل الواقف في صموده المعتاد، وإلى الماء الجاري في السواقي بهمسه

الدائم الذي لا يمله أحد، وإلى الدار الطينية التي احتضنت ابنته في أصعب أيامها واحتضنت فرحها في أجمل أيامها. وكان الأصيل يسكب ذهبه الأخير على كل شيء فيجعل حتى الطين يبدو وكأنه مصنوع من شيء أثمن من الطين.

جاء عبود وجلس بجواره دون كلام. جلسا معاً كما يجلس الرجلان اللذان لا يحتاجان إلى الكلام ليكونا معاً. ثم قال عبود بعد صمت طويل كان مريحاً كالصمت الذي بين الأخوين:

ـ راضٍ يا يسلم؟

نظر الشيخ يسلم إلى الأفق البعيد حيث كانت الشمس تهمّ بالرحيل خلف الجبل، وقال بصوت فيه من العمق ما يتجاوز الإجابة عن سؤال:

ـ الحمد لله يا عبود. جئنا من الصحراء بجرح، ونعود بزواج. الله وحده يصنع هذا.

ابتسم عبود ابتسامة رجل سمع ما أراد أن يسمعه وقال:

ـ الله يبارك لكم ويجعلها بداية خير.

ـ آمين، قال الشيخ يسلم.

وكانت الشمس في تلك اللحظة قد وصلت إلى حافة الجبل وبدأت تختفي خلفه ببطء، تاركة في السماء أثراً من الأحمر والبرتقالي والذهبي يتدرج نحو الأزرق العميق.

وكان النخيل يقف في مواجهة ذلك المشهد كما يقف الشهود، صامتاً وحاضراً وغير مبالٍ بمرور الوقت لأنه رأى ما هو أبعد من الوقت وما هو أطول من الأعمار.

وداع رواسة:

في صباح اليوم الثاني شدّ الشيخ يسلم رحاله. كانت مبروكة تُرتّب الأمتعة بتلك العناية التي تُرتّب بها المرأة الحضرمية أشياءها عند الرحيل، كأن كل قطعة تحمل في طيّها جزءاً من الذاكرة يجب ألا يُنسى.

أما العنود فقد وقفت في باب الدار تنظر إلى القافلة وهي تُجهَّز. وكانت في وقفتها تلك شيء يصعب وصفه؛ كانت تقف في المكان الذي بات مألوفاً لها وتنظر إلى ما كان حياتها كلها وهو يستعد للانطلاق دونها. كانت ستبقى في رواسة حتى تُجهَّز أمور الزواج وتكتمل كما ينبغي، وكان ذلك قراراً متفقاً عليه بين الجميع، غير أن معرفة الشيء والإحساس به حين يصبح حاضراً أمام العينين شيئان لا يتساويان.

اقتربت مبروكة من ابنتها وأمسكت بوجهها بكلتا يديها وأطالت النظر فيه كأنها تريد أن تحفظ كل تفصيل فيه قبل الفراق. ثم قالت بصوت لم ترفعه ولم تخفضه بل تركته على طبيعته بكل ما فيه:

ـ يا بنيتي، الدار الجديدة تحتاج منكِ ما احتاجه منكِ كل شيء في حياتك: الصبر والعقل وطيب الخلق. وأنتِ لم تنقصكِ هذه يوماً.

نظرت العنود إلى أمها نظرة من يريد أن يقول شيئاً كثيراً ويجد أن ما يريد قوله أكبر من أن تسعه الكلمات، فاكتفت بأن ضمّت يدَي أمها بيديها وأبقتهما على وجهها لحظة إضافية.

ثم جاء الشيخ يسلم وأمسك بكتف ابنته وقال بالبساطة التي يقول بها الرجل العميق أعمق كلامه:

ـ الله يحفظك يا عنود. وأنتِ خير ما تركته في هذه الأرض.

لم تجب العنود بكلام. لكن عينيها اللتين احتفظتا طوال الرحلة بذلك الهدوء الصعب، امتلأتا للمرة الأولى منذ وقت طويل بشيء لم تحاول إخفاءه هذه المرة.

وحين تحركت القافلة وبدأت الجمال تسير واحدة خلف الأخرى في ذلك الصف المتمايل المعتاد، كانت العنود واقفة في باب الدار تراقبها حتى غابت خلف النخيل. ثم التفتت إلى رواسة من حولها بعينين تُقرران أن هذا المكان صار منذ اليوم مكانها، وسارت بخطوات ثابتة نحو الداخل.

وكانت النخيل تتمايل في نسيم الصباح البكر تمايلاً هادئاً كأنها تُرحّب وتودّع في الوقت ذاته، بتلك الطبيعة التي

تختص بها الأشجار الكبيرة العارفة أن الرحيل والبقاء وجهان لشيء واحد اسمه الحياة.

وبقيت السواقي تجري بهمسها الدائم بين جذور النخيل، والماء يمضي إلى حيث يمضي غير مبالٍ بما يتركه خلفه وغير سائل عما ينتظره أمامه، بتلك الثقة الأزلية التي لا يملكها إلا الماء والزمن.

العنود في بيتها الجديد في بير العرسة:

انتقلت العنود إلى بيت زوجها سعيد ابن عمشوش في مطلع الخريف، حين تبدأ حضرموت في التنفس بعد قيظ الصيف وتُلقي عن كاهلها ثقل الحر كما يُلقي المسافر حمله حين يصل. كانت مزرعة بير (العرسة) تقع في منطقة الفجير شرقي سيؤن، في ذلك الجزء من الوادي الذي يمتد بين الجبل والمسيال امتداداً يجمع بين انفساح الأفق وحميمية الأرض المزروعة.

وكانت الدار في طرف المزرعة الشرقي، تقوم على أرض مرتفعة قليلاً عما حولها كأن من اختار لها موضعها أراد لها أن ترى دون أن تُرى كاملاً. بُنيت من اللبن الطيني الأحمر الذي يتدرج لونه مع ساعات النهار من البني الداكن في فجر الصباح إلى الذهبي المحروق في أوج الظهيرة إلى الأحمر المتوهج في لحظة الغروب. وكانت

نوافذها الصغيرة المطلة على المزرعة والنخيل تبدو في ضوء الأصيل كعيون متأملة تقرأ ما تراه وتحتفظ بما تقرأ.

دخلت العنود ذلك البيت بالخطوة التي يدخل بها الإنسان مكاناً يعرف أنه سيظل فيه طويلاً؛ خطوة ليست متسرعة ولا متهيبة، بل خطوة من وطّن نفسه على البقاء وقرر أن يجعل من هذه الجدران امتداداً لما يحمله في داخله. وقفت في الغرفة الرئيسية ونظرت إلى الجدران وإلى السقف المحمول على عوارض خشبية قديمة، ثم نظرت من النافذة الصغيرة إلى النخيل الواقف في صفوفه المنتظمة، فأحست بشيء يشبه التعرف على مكان لم تره من قبل لكنه يبدو مألوفاً كأنها أتت إليه من حلم قديم.

*

لم تكن العنود من النساء اللواتي يرين في جدران البيت حدوداً لا تُتجاوز. فقد نشأت في الصحراء المفتوحة وتعلمت من أمها مبروكة أن الحياة تحتاج إلى يدين لا يد واحدة، وأن الأرض لا تُعطي إلا لمن يُعطيها.

كانت تنهض قبل شروق الشمس بوقت كافٍ لإيقاد النار وإعداد ما يحتاجه النهار قبل أن يبدأ. ثم تخرج مع سعيد إلى المزرعة حين يبدأ النور الأول يكشف عن ملامح الأشجار في الظلام. كانت تعرف الأرض بطريقة تختلف

عن طريقة سعيد؛ هو يعرفها معرفة الفلاح الذي ورثها عن أبيه وجدّه، وهي تعرفها بحاسة المرأة التي نشأت تقرأ الطبيعة بعينين لم تُدرَّبا على القراءة لكنهما أتقناها.

كانت ترافق سعيد في سقيا النخيل، تلك العملية التي تبدو في ظاهرها بسيطة غير أنها تحتاج إلى صبر من يعرف أن الماء يجب أن يصل إلى كل جذر بحصته العادلة لا أكثر ولا أقل. كانت تمشي بين العتوم والسواقي وتُصلح ما انهار من جدرانها الترابية الصغيرة، وتُحوّل مسار الماء بقطعة طين أو حجر صغير بدقة من تعلّم أن الماء في الصحراء لا يُهدر ولو قطرة.

وكانت تُشرف على أغنامها السبع عشرة اللواتي أحضرهن من رواسة معها، وقد أضاف إليهن سعيدٌ من عنده ما جعل القطيع يكبر ويزداد. كانت تعرف كل نعجة باسمها وبطبعها وبصوت ثغائها، وكانت تُلاحظ قبل غيرها حين تبدو على إحداهن أعراض المرض أو الضعف، فتُعالجها بما تعلمته من أمها ومن أم سالم في رواسة.

كان سعيد يراقب زوجته بعيني الرجل الذي اختار جيداً ويعرف أنه اختار جيداً. لم يكن رجلاً كثير الكلام، لكن صمته لم يكن غياباً بل كان حضوراً من نوع آخر؛ حضور الرجل الذي يترجم ما يُريد قوله إلى فعل لا إلى لفظ. كان يضع في يدها أحسن ما تُنتجه المزرعة قبل أن تطلب،

ويُخفف عنها ما يستطيع تخفيفه دون أن يجعل ذلك مناسبة للفخر.

وهكذا بنيا معاً، في صمت العمل اليومي وفي ثقة الأيام المتراكمة، ما لا تبنيه الكلمات الكثيرة؛ بنيا ذلك التفاهم العميق الذي يجعل الحياة المشتركة حياة حقيقية لا مجرد اجتماع تحت سقف واحد.

*

في ربيع السنة الأولى من إقامتها في بير العرسة، حملت العنود. وكانت حملها مختلفاً عن الحمل الذي تصفه النساء بالثقل والوهن؛ كانت تمشي في المزرعة وبطنها يكبر شيئاً فشيئاً كما يكبر الثمر على الشجرة، ببطء لا يُلاحَظ يوماً بيوم لكنه واضح فجأة حين يُقاس أسبوع بأسبوع. ولم تتخلَّ عن عملها في المزرعة إلا في الأسابيع الأخيرة حين أقنعها سعيد بالراحة بالطريقة التي لا يُقنع بها أحدٌ العنود إلا حين يكون الأمر ضرورة لا مجاملة.

جاء المولود في صباح يوم هادئ كانت فيه الريح ساكنة والسماء صافية بذلك الصفاء الذي يُشعر الناظر إليها بأن العالم في تلك اللحظة بالذات متوازن ومستقر. وحين سمعت العنود صراخه الأول، ذلك الصراخ الذي يُعلن الوصول ويُطالب بالاعتراف في آن واحد، أغمضت عينيها لحظة قصيرة ثم فتحتهما على وجه أحمر صغير مكرمش كان فيه مع ذلك شيء يشبه الكرامة الأصيلة.

حملته بيديها وعيناها تقرآن وجهه بالتدقيق الذي تقرأ به الأم وجه وليدها للمرة الأولى، ذلك القراءة التي لا تبحث عن شيء بعينه لكنها تحفظ كل شيء. ثم قالت بصوت فيه ما فيه من المعاني المتشابكة:

- يسلم.

لم تكن الكلمة إجابة عن سؤال لأن سعيداً لم يسأل بعد. كانت قراراً اتخذته وحدها في تلك اللحظة التي تنفرد فيها المرأة مع وليدها بمعرفة لا يشاركها إياها أحد. كانت تُعيد إلى الوجود اسم أبيها الذي غادر قبل أن يرى هذا اليوم، تُعيده لا من باب الحزن بل من باب تلك الاستمرارية الصامتة التي تؤمن بها الأرض الحضرمية أكثر مما يُؤمن بها أهلها أحياناً.

وحين بلغ الخبر جارتها فاطمة بنت جمعان يربوع، تلك المرأة التي كانت دارها تقع على مرمى صوت من دار العنود وكان بينهما من الود ما يجعل الجوار أخوّة، جاءت مسرعة وفي يدها ما أعدّته للمناسبة. كانت فاطمة امرأة في الخامسة والثلاثين، أرملة تُربي أطفالها بيدين لا تتعبان وقلب لا يُحسب للتعب حساباً. كان بينها وبين العنود ذلك النوع من الصداقة التي لا تحتاج إلى مناسبة لتبرر نفسها ولا إلى تقصير لتُختبر.

أمسكت فاطمة بالطفل يسلم بتلك الطبيعية التي تُمسك بها المرأة الخبيرة الأطفالَ كأنهم امتداد لجسدها هي، وأخذت

تُغنّي له بصوت منخفض دافئ إحدى تلك الأغاني الحضرمية القديمة التي لا يعرف أحد متى وُلدت لأنها وُلدت قبل أن يبدأ الناس بتسجيل المواليد. وكانت العنود تراقبها بعيني المرأة المطمئنة التي عرفت كيف تختار من يثق به.

كبر يسلم بين يدي أمه وجارتها فاطمة، بين دارين كانت أبوابهما مفتوحة بعضها على بعض بما يجعل الطفل يجد نفسه في كلتيهما في البيت. تعلم من أمه الصمود والعطاء والنظر إلى الأشياء بعينين لا تكتفيان بما يظهر. وتعلم من فاطمة الضحك على الأشياء الصغيرة وعدم انتظار الأشياء الكبيرة كي يُسمح له بالفرح.

*****

ثم جاء هادي بعد يسلم بسنتين. جاء في فصل الصيف حين كانت الحرارة في أوجها وكانت المزرعة تستريح في وقت الظهيرة من عمل الصباح. وكان مجيئه أسرع وأهدأ من مجيء أخيه الأكبر، كأنه كان يعرف الطريق لأن أخاه سبق وأرسى معالمه.

كان هادي طفلاً يختلف عن يسلم من اليوم الأول. حيث كان يسلم صاخباً مطالباً لافتاً للانتباه، كان هادي يكتفي بالمراقبة. يجلس في ركنه ويُتابع ما يجري حوله بعينين كبيرتين هادئتين كأنه يجمع معلومات لاستخدامها لاحقاً.

وكانت العنود تقول لفاطمة أحياناً وهي تراقب ابنها الثاني:

ـ هادي يُفكر أكثر مما يتكلم، وخشيتي أن يتراكم في داخله ما لا يجد له متنفساً.

فكانت فاطمة تضحك وتجيب بحكمة المرأة التي ربّت أطفالاً وعرفت أنواعهم:

ـ الساكتون هم من يصنعون الأشياء الكبيرة يا عنود. لا تخشي على هادي، فالماء الهادئ هو الذي يحفر الصخر.

*****

ثم جاءت مبروكة. كانت العنود حين حملت بها تشعر بشيء مختلف لا تستطيع وصفه إلا بأنه ثقل من نوع غير الثقل الجسدي. كان ثقلاً في القلب يشبه تذكّر شيء لم تنسَه أصلاً. وحين سألتها فاطمة عمّا تُحس قالت بعد صمت قصير:

ـ كأن أمي معي.

وحين وُلدت البنت في ليلة شتائية كان المطر يطرق فيها سقف الدار بإيقاع منتظم هادئ كأنه يُعلن لا يُزعج، احتضنتها العنود وعيناها مغمضتان ودمعتان خرجتا دون إذن. لم تكن دمعتَي حزن بالمعنى الكامل ولا دمعتَي فرح بالمعنى الكامل، بل كانتا شيئاً يجمع بين الاثنين؛ كانتا

تحية لمن غابت وتعريفاً لمن وصلت. قالت وهي تُنيمها على صدرها:

ـ مبروكة.

وكان الاسم في فمها كالماء البارد في يوم حارّ؛ يروي ما كان ظامئاً.

كانت مبروكة الأم قد رحلت قبل أن يكتمل عام على زواج ابنتها. رحلت في الصمت الذي رحلت فيه الأشياء الكبيرة، دون أن تُثير ضجة ودون أن تترك وراءها إلا ما يتركه الأساس حين يختفي تحت البناء؛ لا يُرى لكن كل شيء يقوم عليه. وكانت العنود قد حملت غيابها في صدرها طوال الأشهر الماضية بالطريقة التي تحمل بها المرأة الحضرمية أحزانها: في الداخل حيث لا تعيق المشي ولا تُوقف العمل لكنها موجودة دائماً كجمر تحت الرماد.

وكبرت مبروكة الصغيرة في ظل اسم أكبر منها، لكنها لم تنهض تحته بل نهضت معه. كانت طفلة فيها من جدتها التي لم ترها شيء يصعب وصفه لكن لا يصعب الإحساس به؛ شيء في طريقة نظرتها إلى الأشياء وفي هدوء يدها حين تمسك شيئاً وفي صوتها الذي كان حتى في طفولتها يحمل نبرة المرأة التي تعرف ما تريد.

*

وفي السنة التي أخضرّت فيها المزرعة بعد موسم مطر غزير لم يشهد أهل الفجير مثله منذ سنوات، وُلد الربيع. كان الاسم من اختيار سعيد هذه المرة. جاء به إلى العنود بعد أن وقف طويلاً أمام النخلة العجوز في وسط المزرعة، تلك النخلة التي كانت تبدو وحيدة بين أخواتها لكبر حجمها وقِدَم جذعها. ثم قال بجملة واحدة:

ـ نسمّيه الربيع، فهذا العام أعطانا ما طالما انتظرنا.

نظرت إليه العنود بالنظرة التي تنظر بها إلى كلامه حين يكون كلاماً حقيقياً، ثم أومأت بما يكفي.

كان الربيع الطفل مختلفاً عن إخوته اختلافاً يلاحظه كل من يراه. كان فيه شيء من خفة الريح وشيء من إصرار الماء؛ لا يهدأ طويلاً في مكان واحد ولا يمكن إيقافه حين يقرر التحرك. كان يركض بين نخيل المزرعة كأن أقدامه الصغيرة لا تعرف التعب، ويتسلق ما يمكن تسلقه ويُجرّب ما يمكن تجربته. وكانت العنود تتعبه بعينيها من بعيد حين لا تكفيها يداها لإمساكه، وكانت تقول لسعيد في المساء بنبرة فيها من المزاح ما يخفف ثقلها:

ـ الربيع لا يُعلَّم، يتعلم وحده. وما أخشاه أن يتعلم ما لا ينبغي قبل ما ينبغي.

*

وجاءت غالية بعد الربيع بثلاث سنوات. جاءت في خريف هادئ حين كانت ثمار النخيل تتدلى وقد اكتمل عقدها وصار لونها بين الأصفر والأحمر. وكان في مجيئها شيء يشبه اكتمال الثمر؛ لم تأتِ في عجلة ولم تُبطئ، بل جاءت في وقتها تماماً.

وكانت غالية من ذلك النوع من الأطفال الذين يجعلون من حولهم يبتسمون دون أن يطلبوا ذلك. في عيونها الواسعة البنيتين كان ضوء لا يرتبط بمناسبة بعينها بل كان سمتها الدائم. وكانت تحبّ الأغنام حباً خاصاً جعل العنود تقول إن فيها روح من أمها البدوية التي نشأت تعرف أسماء الغنم قبل أسماء الناس.

كانت غالية تُرافق أمها إلى زريبة الأغنام كل صباح وتمشي بين الأغنام بلا خوف وبلا ضجة، تضع يدها الصغيرة على جانب النعجة بهدوء يجعلها لا تنفر. وكانت العنود تراقبها وفي عينيها ذلك الدفء الذي لا يصفه وصف لكن كل أم تعرفه.

*****

وجاء بعد غالية بأربع سنوات سالم، حين كان يسلم قد صار شاباً يُساعد أباه في المزرعة وكانت مبروكة قد بدأت تحمل شكل الفتاة وتضع خلف أكتافها الطفولة ببطء وكأنها لا تودّها وداعاً حاراً.

كان سالم طفلاً هادئاً ثقيل الجسد منذ ولادته، كأنه أراد أن يُعلن منذ البداية أنه جاء للبقاء ولا يعنيه الإسراع. تعلّم المشي متأخراً وتعلم الكلام متأخراً، لكن حين مشى مشى بثبات لم يتعثر منذ خطوته الأولى، وحين تكلم تكلم بجمل كاملة كأنه كان يُراجعها في ذهنه طوال الوقت الذي أمضاه في الصمت.

أحبّ سالم الأرض بطريقة تختلف عن طريقة كل إخوته. كان يجلس أحياناً في المزرعة ويضع يده على التربة ببطء كأنه يستمع إلى شيء لا تسمعه الأذن. وكان سعيد حين يراه هكذا يقف بجانبه لحظة ثم يمضي في عمله بصمت الرجل الذي يرى شيئاً يسعده دون أن يقدر على تفسيره.

كان عسكول آخر العنقود، جاء بعد سالم بثلاث سنوات في تلك المسافة الزمنية التي تجعل آخر الأبناء يكبر في ظروف مختلفة عن إخوته، فيكون في آنٍ واحد أصغرهم سناً وأوفرهم حظاً من انتباه الأم ومن حكمة الإخوة الكبار.

وُلد عسكول في صيف حارّ كانت فيه الرياح الجنوبية تهبّ على سيؤن بما تحمله من رمال ناعمة تلتصق بكل شيء. وكان مجيئه في تلك اللحظة بالذات كأن الطبيعة أرادت أن تُصاحب ولادته بشيء من العلامات؛ ريح تحمل تراب الصحراء التي جاء منها جدّه، وحرارة تُذكّر بأصول بدوية لا تُمحى.

كان عسكول في ملامحه مزيجاً غريباً جميلاً من كل من سبقه. فيه من يسلم الجد طول القامة الموعود الذي بدا عليه منذ طفولته، وفيه من أمه العنود تلك العيون الواسعة التي تقرأ ما لا تقرأه العيون العادية، وفيه من أبيه سعيد الهدوء الظاهر الذي يُخفي تحته عزماً لا يظهر إلا حين يحتاج الظهور.

نشأ عسكول في مزرعة بير العرسة وهي في مرحلة نضجها؛ نخيلها في أوج إنتاجه وسواقيها مُحكمة وأرضها تعرف يد من يزرعها. فكانت المزرعة له مدرسة قبل أن تكون مورداً، وكانت أمه معلمته الأولى التي لم تجلس معه يوماً لتُعلّمه بل كانت تتركه يرى ويسمع ويتعلم بالطريقة التي تعلمت هي بها.

كان يتبع أمه في المزرعة منذ أن كانت ساقاه الصغيرتان تستطيعان حمله بين النخيل. كان يراها تتفحص التربة وتقرأ في لونها ودرجة رطوبتها ما يُحتاج إلى معرفته، ويراها تتعامل مع الأغنام بتلك الطبيعية التي تجعل الحيوان يطمئن قبل أن يعي لماذا اطمأن. وكان يرى في عينيها حين تنظر إلى المزرعة شيئاً لم يستطع تسميته في طفولته لكنه حين كبر وجد له اسماً: كانت تنظر إليها بعيني من يعرف أن ما أمامه ليس ملكه وحده بل أمانة في يده.

وكانت أمه في مساءات الجلوس تحت النخيل تحكي له أحياناً. لا تُحاضر ولا تُلقي دروساً بل تحكي، بالطريقة التي تحكي بها النساء الحضرميات حين يُردن أن يُعلّمن؛ من خلال القصص التي تبدو عادية في ظاهرها وتحمل في باطنها ما يبقى في الذاكرة عمراً كاملاً.

كانت تحكي له عن جدّه يسلم وكيف كان يقرأ الطريق من خطوط الرمال. وكانت تحكي له عن تلك الرحلة الطويلة من الصحراء إلى سيؤن وعن الجرح الذي كاد يُغير مسار الأشياء لكن الله أراد غير ذلك. وكانت تحكي له عن رواسة وعن أم سالم وعن أغنامها السبع عشرة التي تركتها هناك بمحض إرادتها في يوم كانت فيه طفلة تصبح امرأة.

وكان عسكول يسمع بتلك الطريقة التي يسمع بها من يعرف أن ما يسمعه يخصّه هو بالذات وليس مجرد تاريخ عائلة.

**

كبر أبناء العنود وبناتها في مزرعة بير العرسة كما تكبر النخيل؛ ببطء لا يُلاحَظ يوماً بيوم لكنه يُدهش حين يُقاس موسم بموسم. كان كل واحد منهم يحمل في ملامحه شيئاً من أمه وشيئاً من أبيه وشيئاً ثالثاً لم يأتِ من أحد بل نبت فيه وحده من تفاعل الأرض والهواء والأيام.

كان يسلم الأكبر يشبه جدّه في الاسم وفي بعض الملامح، طويل القامة نحيل الجسد كأن الصحراء التي جاءت منها أمه أرسلت فيه نموذجاً عنها. تعلّم أعمال المزرعة بالسرعة التي يتعلم بها من وُلد لها، وصار بجانب أبيه ظلاً واسعاً يُسند ولا يُثقل. وحين بلغ الخامسة والعشرين وصار يحب الشرح البدوي ويذهب إليه بانتظام. وجاء من يطلب يده لابنته من أهل سيؤن المعروفين، وافق سعيد بعد أن سأل يسلم فوجده راضياً، وأُقيم العرس في مزرعة بير سالم بالطريقة التي تُقام بها الأعراس الحضرمية حين يكون أهل العريس كرماء؛ ذبحاً وقدحاً وضيافة تمتد أياماً.

أما هادي فقد سلك طريقاً مختلفاً. ذلك الصمت الذي عرفه منذ طفولته لم يكن عجزاً بل كان تركيزاً. صار هادي المزارع الأمهر بين إخوته، الذي يعرف متى تحتاج النخلة إلى ماء قبل أن تُظهر علامات الظمأ، ويعرف أي جزء من الأرض يصلح لأي زرع بمجرد أن يأخذ منها حفنة ويتفحصها بين أصابعه. وحين تزوج كان في الثامنة والعشرين، وجاء بزوجته من أهل الفجير الذين كانت مزرعتهم تُجاور مزرعة بير العرسة، فكان الزواج جمعاً لأرضين قبل أن يكون جمعاً لروحين.

وكانت مبروكة البنت الأولى قد نضجت نضوج الثمرة التي أخذت وقتها كاملاً فلا تخيب. فيها من جدتها التي سُمّيت باسمها ذلك الثبات الذي لا يتزعزع وتلك النظرة الحادة

التي لا تُخطئ شيئاً. وحين تقدّم لها أحد أبناء عبود بن عمشوش، ذلك الرجل الذي كان سبب اجتماع أسرتين، دارت الأيام دورتها وعادت إلى نقطة تشبه نقطة البداية كما تعود الأنهار إلى البحر بطرق مختلفة. وأُقيم عرسها في فصل الربيع حين كانت المزرعة في أجمل هيئاتها والنخيل يحمل طلعه الأبيض الذي يملأ الهواء برائحة لا تشبهها رائحة أخرى.

وتزوجت غالية في العشرين من عمرها من رجل من أهل سيؤن القديمة (البلاد)، رجل لا يُربّي الإبل ولا يعرف الصحراء. وحين رأت العنود صهرها الجديد لأول مرة وسمعت طريقة كلامه عن الطريق والرمال والنجوم، ابتسمت ابتسامة لم تُفسّرها لأحد لكن فاطمة بنت جمعان التي كانت بجانبها أدركتها وابتسمت هي أيضاً دون أن تسأل.

كان يسلم وهادي قد أسسا بيتيهما لكنهما لم يبتعدا عن المزرعة. كانا يأتيان كل صباح ويُساعدان فيما يحتاج إلى مساعدة، وكان يسلم بالذات يُشبه أباه في تلك الطريقة الصامتة التي يُعبّر بها عن المسؤولية بالفعل لا بالكلام. أما الربيع وسالم فقد كانا لا يزالان في دار أمهما، وكان الربيع قد صار شاباً يحمل ما قدرا كبيرا من الهمة والحيوية، وكان سالم يكبر ببطئه المعتاد الذي كان يُعطي كل شيء ثقله وأثره.

وكانت العنود تُدير المزرعة بتلك المعرفة التي راكمتها عبر سنوات طويلة من العمل والمراقبة والتعلم. كانت تعرف أي النخيل يحتاج تقليماً وأيها يحتاج ماءً أكثر وأي جزء من الأرض أُرهق ويحتاج راحة موسمية. وكانت تُقرر في أمور المزرعة بذلك الجمع النادر بين الحدس والتجربة، فلا تُخطئ كثيراً ولا تتردد طويلاً.

*

وفي المساء، بعد أن يهدأ صوت المزرعة ويتفرق الأولاد إلى أماكنهم، كانت العنود تجلس في الفناء تحت السماء الحضرمية التي كانت تنثر نجومها بسخاء من لا يخشى النفاد. وكانت في تلك الجلسة تتكلم بصمتها مع من غابوا؛ مع أبيها يسلم الذي أعادت اسمه إلى الحياة في ابنها البكر، ومع أمها مبروكة التي أعادت اسمها إلى الحياة في بنتها الأولى.

**

مضت السنوات على مزرعة بير العرسة كما تمضي السنوات على الأماكن التي فيها من الجذور ما يكفي لاحتمال كل فصل بما يحمله. جاء الجفاف مرة فصبرت المزرعة وصبر أهلها، وجاء الخصب مرات فأعطت المزرعة بسخاء من لا ينسى حين كان بخيلاً. وتغيرت الوجوه في الدار وتراكمت الأيام وصار ما كان جديداً قديماً وما كان صغيراً كبيراً.

وكانت العنود في قلب كل ذلك ثابتة ثبات النخلة العجوز في وسط المزرعة، تلك النخلة التي أحبّها سعيد وسمّى ابنه باسم الفصل الذي غنّت فيه. كانت العنود تكبر وتشيخ بالطريقة التي يشيخ بها من عاش بالكامل؛ لا بالتراجع والانسحاب بل بالاكتمال والتعمق. كانت تجاعيد وجهها لا تُشبه تجاعيد التعب بل تُشبه خطوط الأرض الحضرمية التي يحفرها الماء والريح معاً فتجعلها أجمل وأكثر صدقاً.

وحين كانت تجلس في المساء وترى حولها ما بنته هي وسعيد معاً من أولاد وأرض وحياة، كانت في عيونها شيء يصعب وصفه. لم يكن رضا المكتفي ولا فخر المتباهي، بل كان شيئاً أعمق من الاثنين؛ كان ذلك الشعور الهادئ الذي يأتي حين يعرف الإنس

وحين يعرف الإنسان أنه أدّى ما جاء من أجله وأن ما زرعه بيده سيظل قائماً بعده، لا كتمثال يُنصب للتذكير بل كشجرة تُثمر وتُظلّل وتُورق من تلقاء نفسها لأن في جذورها من الحياة ما يكفيها.

وكان عسكول في تلك المساءات يجلس بجوارها أحياناً دون أن تطلب منه ذلك. يجلس بالقرب منها بالمسافة التي يجلس فيها من يريد أن يكون حاضراً دون أن يكون ثقيلاً، ويصمت بالصمت الذي يُريح لا الذي يُقلق. وكانت العنود تُحس بوجوده بجانبها إحساس الأرض بالماء؛ دون ضجة ودون إعلان لكن بامتنان عميق لا يحتاج إلى كلمات.

الفصل الثالث

عسكول في مسقط رأسه سيؤن

وُلد عسكول، آخر العنقود، كما ذكرنا، في مزرعة بير العرسة بالفجير، وترعرع في رحاب تلك الأرض التي جمعت بين ذاكرة أمه العنود القادمة من صحراء زمخ ومنوخ، وبين طين حيّ القرن بسيؤن، ذلك الحيّ الذي كان من أكثر أحياء المدينة خضرةً، وتتخلله البساتين وتحيط به النخيل من كل جانب، ويسكنه العمال والمزارعون الذين يعرفون قيمة الأرض لأنهم يعيشون منها ويعيشون لها. ولم يكن فيه إلا بضعة دكاكين تبيع السلع الأساسية، لكنه كان غنياً بما لا تبيعه الدكاكين: بالجيرة والتعارف والأصوات المتداخلة في الصباح والمساء.

ـعسكول في مدرسة القرن:

بعد أن فقدت المرحومة سعدية بن مزروع زوجها، وكانت ابنة عمة سعيد عمشوش، والد عسكول، وسافر ابنها الأكبر عوض إلى بلاد السواحل في أواخر خمسينيات القرن العشرين، اختارت أن تقيم بجوار أسرة عسكول في حي القرن. وكانت تزورهم بين الحين والآخر برفقة ابنها ربيع وابنتها زهراء. وفي مساء أحد أيام شهر أكتوبر من عام 1962 حلّ الثلاثة ضيوفاً على الأسرة وباتوا عندها.

وفي صباح اليوم التالي هيأت سعدية ولدها ربيع، الذي كان يكبر عسكول بعام واحد، للذهاب إلى الدراسة في مدرسة القرن الأهلية، التي لم يكن قد مضى على تأسيسها سوى أكثر من عام بقليل، بجهود أهالي الحي، وفي مقدمتهم أستاذه الأول الشهيد محمود سالم صقران، الذي عُيّن أول مدير للمدرسة.

ورغم أن والد عسكول كان يتمنى أن يكون له ولد يجيد القراءة كما كان والده يجيدها، فإنه لم يبادر إلى إلحاق ابنه الأكبر سالم، الذي كان في السابعة من عمره ويكبر عسكول بعامين، بتلك المدرسة، لأنه كان بحاجة إلى مساعدته في أعمال الزراعة صباحاً، واكتفى بأن يرسله إلى «علمة بلغيث» وقت الظهيرة. غير أن عسكول، الذي لم يكن قد تجاوز الخامسة من عمره ولم يكن ذا فائدة تُذكر في المزرعة، طلب من والده أن يسمح له بالذهاب مع ربيع، فلم يرفض الأب طلبه، بل التفت إلى ربيع قائلاً: اصبر، أنا با شلكم للعلمة.

واختصاراً للوقت، قادهم الأب عبر ثلاثة بساتين من حي القرن، كانت غنية بالخضرة قليلة البيوت، حتى وصلوا إلى دار علي السقاف الملقب بـ«البكّاي»، الواقعة على مسافة تقارب نصف كيلومتر من مزرعة بير العرسة. وكانت مدرسة القرن قد اتخذت من إحدى غرف هذه الدار المربعة مقراً مؤقتاً لتعليم نحو ثلاثين تلميذاً من طلاب الروضة والمستوى الأول. وعند باب الغرفة نادى الأب

المعلم عمر باكثير، المعروف بـ«عمر معلّم»، وأبلغه برغبته في إلحاق عسكول بالمدرسة، على أمل أن يصبح يوماً قاضياً. فأوضح له عمر معلّم أن الأمر يتطلب دفع شلنين شهرياً وشراء «نظير وفطلط»، أي كراسة وقلم رصاص.

ومع نهاية العام الدراسي الأول انتقل التلاميذ إلى بيت المرحوم سالم بارمادة الواقع في وسط حي القرن، غير أن المدرسة انتقلت مع بداية العام الدراسي 1963–1964 إلى مبناها الجديد المشيد عند سفح الجبل شرقي حصن الفلس. وقد أُقيم المبنى بفضل مبادرات أبناء الحي ودعم مالي سخي من المرحوم الحاج سالم عبيد باحبيشي، الذي استقر في القرن بعد زواجه من إحدى بنات آل جوّاس، جيران الأسرة. ولتوفير موارد مالية للمدرسة، أنشأت اللجنة المشرفة عليها «مشروع مياه القرن»، واشترت شاحنة «قلاب زيزو» التي أممها يسار الجبهة القومية في أواخر عام 1968.

وفي مطلع ذلك العام الدراسي اقتنع والد عسكول أخيراً بإلحاق ابنه سالم بالمدرسة، فتم قبوله مباشرة في المستوى الثاني بعدما استفاد كثيراً من دراسته السابقة عند «علمة بلغيث». وظل سالم طوال سنواته الدراسية في مدرسة القرن ينافس زميله سالم فرج بافرج على المركز الأول في مختلف الامتحانات والمستويات، وكان الاثنان من أكثر التلاميذ هدوءاً وانضباطاً.

أما عسكول، إلى جانب صديقيه عبادي (عبد الله) السبايا وزيد فرقز، فكانوا من أكثر التلاميذ ميلاً إلى المشاغبة والتمرد. وكثيراً ما كانوا يتأخرون عن الحصة الثالثة لأن فترة الاستراحة لم تكن تكفيهم للتنقيب عن كميات كافية من البطاطا في البساتين المجاورة. وكانت ملابسهم تبقى متسخة في معظم الأوقات، كما كانوا يتجنبون ارتداء القمصان الناصعة البياض أو المكتملة الأزرار.

ولا تكاد الذاكرة تحتفظ من السنة الثانية في مدرسة القرن إلا ببعض المواقف البارزة، مثل حصص الجغرافيا التي تعلم فيها التلاميذ رسم خرائط البيوت وواجهاتها، ومحاولات البحث عن كنز متخيل في الجبل المطل على المدرسة. كما بقي في ذاكرته مشهد الطابور الصباحي والحفل الأسبوعي الذي كان يقام كل يوم خميس بعد الحصة الثالثة. ومن بين معلميه الذين تركوا أثراً عميقاً في نفسه عبد الكريم عبود، شقيق مصطفى عبود الذي استقبله لاحقاً في باريس عام 1975، ومحمد عبد الرحمن السقاف المعروف بـ«ميم السقاف»، الذي اشتهر باحتفاظه بعدد لا بأس به من العصي لمعاقبة من يستحق العقاب.

وعندما انتقل عسكول في العام الدراسي التالي إلى المستوى الثالث، شهدت المدرسة والحي أحداثاً مهمة. فبعد فترة وجيزة من بداية العام تقلص عدد التلاميذ في الصف بصورة مفاجئة؛ إذ انخفض من نحو سبعة وثلاثين

إلى أقل من عشرين طالباً، بعدما اختارت أعداد كبيرة من سكان حي القرن الهجرة براً إلى المملكة العربية السعودية. وقد ساعد على هذه الموجة وصول أعداد كبيرة من سيارات النقل السعودية «الونيت» إلى سيئون، حيث كانت تتخذ من ساحة «جروب الحسن» محطة لها طوال عام 1964.

ومع ذلك، رفض والد عسكول أن يسافر أي واحد من أبنائه الخمسة إلى الحجاز. وكان أبناء أخواله من آل بن مزروع قد حاولوا قبل نحو عشر سنوات إقناعه بالسماح لابنه الأكبر بالسفر معهم إلى ممباسا، فوافق في البداية واستخرج له جواز سفر، لكنه تراجع في اللحظة الأخيرة ورفض الفكرة. وقد بدا لاحقاً أن قراره كان صائباً، إذ تزامنت موجة الهجرة إلى السعودية مع العودة القسرية لآلاف الحضارم من شرق إفريقيا وإندونيسيا.

وسرعان ما استقر في حي القرن عدد من العائلات العائدة من جاوة والسواحل الشرقية لإفريقيا. وبعد أن فقد عسكول بسبب الهجرة عدداً من رفاق طفولته، مثل صالح ناصر سلمي وعامر مجرش وسعيد وأحمد البكيري وراضي ومطران باسعيدة، وجد نفسه يكوّن صداقات جديدة مع أبناء العائدين من السواحل، ومنهم أحمد خميس عبدون وأخوه جمعان، وصالح سلمان باصالح وإخوته علي وعوض وربيع، وجميعهم من مواليد شرق إفريقيا.

وفي العام نفسه عاد أيضاً صالح بن مزروع، شقيق سعدية بن مزروع وعمّ ابنها عوض، من بلاد السواحل، فالتحق بالعمل في البنك بفضل إجادته اللغة الإنجليزية، بينما انضم عوض إلى الدراسة في مدرسة القرن. وفي تلك الفترة كذلك انتقل ابن عم عسكول، علي عبود عمشوش، مباشرة من دار السلام في كينيا إلى جدة بالمملكة العربية السعودية.

عسكول مع أبيه في تاربة:

منذ أن بلغ عسكول الخامسة من عمره، في مطلع ستينيات القرن العشرين، اعتاد والده أن يخصه من بين إخوته الخمسة بمرافقته إلى مسقط رأسه، تاربة، في ليلة الخامس والعشرين من شهر رمضان من كل عام، لحضور ختم مسجد وادي بن سلمان. وكان الأب يوصي سعيد بن قفله، صاحب سيارة لاندروفر خضراء قديمة، بأن يحجز لهما مكاناً في سيارته لينقلهما بعد صلاة العصر إلى الوادي الواقع على مسافة نحو خمسة عشر كيلومتراً شرقي سيئون. أما أخوه سالم فكان يصل إلى هناك في الغالب قبلهما.

وعند حلول موعد الإفطار والعشاء، كانا ينزلان ضيفين على المرحومين سالم وعوض بن مزروع، ابني خال والده، وكان عوض قد افتتح أول دكان في الوادي بعد

عودته النهائية من المهجر. أما السحور فكانا يتناولانه عند صالح بن مزروع في حراد، الذي عاد هو الآخر من المهجر والتحق بالعمل في البنك. ولم يكن ما يجذب عسكول إلى مجلس السحور الطعام بقدر ما كان يستهويه الاستماع إلى الفاتحة الطويلة التي كان يتلوها المرحوم عميران بن مزروع. وبعد انتهاء التلاوة، كان الجميع يتوجهون – في السنوات التي يصادف فيها رمضان فصل الشتاء – لعبور الوادي إلى المسجد لأداء صلاة الفجر، ولا تزال ذاكرته تحتفظ بوقع البرد القارس الذي كان يلف قاع الوادي في تلك الساعات المبكرة.

وفي صباح اليوم التالي، كان والده يصطحبه إلى منطقة آل غريب الواقعة على الطريق بين سيئون وتريم، ويطوف به بين النخيل و«الخريب» العائدة إلى آل عمشوش، والتي ما تزال إحداها قائمة حتى اليوم، ملاصقة لبيوت آل محسن بن كرثيم العامري وإحدى مزارعهم. وقد ظل في ذاكرته مشهد مؤثر من إحدى تلك الزيارات، حين جلس والده طويلاً داخل إحدى غرف تلك الخرابة وأخبره بأنه وُلد فيها، وأن والدته المزروعية اضطرت في زمن مضى إلى مغادرة وادي بن سلمان والعيش في ذلك المكان الذي لم يعد في الحقيقة داراً بالمعنى المعروف. وكان الأب يومها يقترب من الستين من عمره، لذلك كان بعض رجال آل عامر يسألونه مازحين: «يا سعيد، الزقر ذا لي معك، عاده ولدك؟» فيجيبهم بفخر واعتزاز: نعم، ذا آخر العنقود.

وفي بعض الأعوام كان عسكول يرافق أبناء أقاربه من آل بن مزروع وآل بن سعد، إضافة إلى بعض القادمين من سيئون، ولا سيما ربيع وهادي ابني حمود بن سلمان، في جولات طويلة بين الشعاب المجاورة. وكثيراً ما كانوا يغامرون حتى يبلغوا منبع وادي الحزير البعيد، المطل على منبع وادي جذع المشرف على سيؤن. وكان معظمهم يضطر إلى الشرب مباشرة من مياه الوادي، رغم أنهم يعودون جميعاً مؤكدين أنهم ما زالوا صائمين. وأحياناً كانوا يمرون بشحرة الغبراء، التي أصبحت اليوم محاطة بمركز سكني يقطنه عدد كبير من أبناء وادي بن سلمان، وكان عسكول يحرص دائماً على التوقف عند «عِلب الشيخة سلطانة بنت علي» وسط المسيال ليقرأ الفاتحة على روحها.

وعندما كان الخامس والعشرون من رمضان يوافق يوم جمعة، كان والده يقرر البقاء في الوادي حتى صلاة العصر، فيؤديان صلاة الجمعة ثم يشهدان عادة أهل الوادي في أداء الصلوات الخمس معا في مسجد الوادي. فقد جرت العادة بينهم أن يجمعوا الصلوات الخمس في آخر جمعة من رمضان، اعتقاداً منهم بأن ذلك قد يشفع لهم فيما عساه أن يكون قد وقع من تقصير في أداء الفرائض خلال العام المنصرم، والله أعلم.

عسكول في مدرسة القرن ب:

في مطلع العام الدراسي 1964-1965، طلب المرحوم مرعي مرسال، المشرف على فندق السلام التابع للسِّيت، من عسكول أن يتولى بيع الآيسكريم المعروف محلياً بـ«أبو العود» أو «المُصّة»، والذي كان يُعد في ثلاجات الفندق. ولمدة شهر كامل كان يحمل صندوق الآيسكريم بعد صلاة العصر ويتجول به في المنازل المجاورة لمنطقة «بير العرسة». غير أن معظم ما يحمله كان يبيعه لعائلة آل الزبيدي العائدة من إندونيسيا، وكان أفرادها من المولدين الذين لا يجيدون العربية. وسرعان ما طلبت منه فتيات الأسرة أن يجلب لهن السجائر بدلاً من الآيسكريم، بينما تكفل الأولاد بتعليمه ركوب الدراجة الهوائية مقابل حصولهم على الآيسكريم مجاناً. ولم يمض وقت طويل حتى كثرت الآيسكريمات التي كان يزعم أنها ذابت قبل بيعها، فما كان من المرحوم مرعي مرسال إلا أن أنهى خدماته سريعاً ويطرده من تلك المهنة الصغيرة.

وفي بداية العام الدراسي نفسه، طلبت إدارة مدرسة القرن من التلاميذ شراء نسخ من المصحف الشريف لقراءتها في المدرسة وفي جلسات «الحزب» التي كانت تقام بعد صلاة المغرب في مسجد محمد بن عمر أو مسجد عمر حيمد. لكن بعض رفاق عسكول أخبروا المدير بأنه لم يُختن بعد، وأنه لا يجوز له اقتناء المصحف قبل الختان.

فما كان من المدير إلا أن أرسل إلى والده يبلغه بضرورة إجراء الختان لابنه.

وفي ظهر اليوم التالي، أمسك الأب بيد عسكول واصطحبه إلى الجهة الغربية من سور بئر السعادة، حيث كان في انتظارهما الجار علي بافطيم وابنه سعيد، ومعهما الختّان الذي أجرى العملية للصبيين في أقل من ثلاث دقائق. ولم تكن العملية نفسها هي ما أزعج عسكول، بل اضطراره إلى تحمل نظرات عدد كبير من الرجال والنساء الذين حضروا لمشاهدتها بدافع الفضول. ومع انتهاء الأسبوع الأول من تلك المناسبة، استطاع أن يجمع نحو عشرين شلناً من الهدايا والنقوط، فاشترى بها كرة بلاستيكية ونسخة من القرآن الكريم، أنفق على تجليدها ثلاثة شلنات ونصف.

وفي المستوى الرابع، خلال العام الدراسي 1965-1966، تولى الأستاذ محمود سالم صقران تدريسهم بعض موضوعات اللغة العربية، ولا سيما مادة الخط، وكان يكلف تلاميذه بنسخ دروس المطالعة في المنزل، كما يتابع حفظهم للقرآن الكريم وتلاوته عن ظهر قلب أثناء جلسات الحزب في مسجد عمر حيمد. وبفضل هذه التدريبات اليومية تحسن خط عسكول بسرعة ملحوظة، حتى أصبح كثير من نساء الحي يفضلن الاستعانة به في كتابة الرسائل الموجهة إلى أزواجهن العاملين في المهجر، ربما لصغر سنه أو لبراءته. وكثيراً ما وجد نفسه مضطراً إلى

تدوين عبارات ذات طابع شخصي ومحرج، الأمر الذي جعل والدته العنود، رحمها الله، تتحاشى الجلوس معهن عندما تحضر إحدى الجارات لتملي عليه رسالة إلى زوجها في المملكة العربية السعودية.

وفي مطلع عام 1966 ألّف الأستاذ محمود سالم صقران مسرحية شعرية بعنوان «ثورة شعب»، واختار عسكول لأداء دور الطالب فيها. كما نجح، بصفته مديراً للمدرسة، في استقطاب عدد من الشخصيات الوطنية البارزة للتدريس في المدرسة والمشاركة في برامج محو الأمية بحي القرن، ومن أبرزهم عوض باعباد والفنان القدير علوي سالم مولى الدويلة، الذي أُسندت إليه أيضاً مهمة الإشراف على المجلات الحائطية.

وفي الاحتفال الذي أُقيم بمناسبة عيد جلوس السلطان حسين بن علي الكثيري في ذلك العام، شاركت مدرسة القرن في عدد من المسابقات الثقافية والرياضية المنظمة في ساحة مسجد الجامع المقابلة لقصر السلطان. وكان عسكول أحد أعضاء فريق لعبة «كرة العميان»، وأسهم مع زملائه في تحقيق الفوز على فريق المدرسة الحكومية، في واحدة من الذكريات التي ظلت عالقة في ذاكرته لسنوات طويلة.

عسكول في أزقة القرن:

كان حي القرن يُعد من أكثر أحياء سيئون خضرة، إذ كانت بساتينه الوارفة تحيط بمنازله المتناثرة، وكان معظم سكانه من العمال والمزارعين الذين ارتبطت حياتهم بالنخيل والأرض. ومن بين العائلات التي استقرت فيه بصورة دائمة أسرة آل بن حسين السقاف، التي عُرفت بين الأهالي بتواضعها وحبها للعمل، وهي صفات أكسبتها احترام سكان الحي ومودتهم على مر السنين.

وخلال ستينيات القرن العشرين وبداية السبعينيات لم يكن في القرن سوى عدد محدود من الدكاكين الصغيرة التي توفر الاحتياجات الأساسية، وعلى رأسها المواد الغذائية. وكان أشهرها دكان بن عبيد، الذي تحول، على الرغم من ضيق مساحته، إلى ملتقى يومي لكبار أبناء الحي. فبعد صلاة العشاء، وفي ليالي رمضان بعد صلاة التراويح، كانوا يتجمعون فيه لتناول الطعام، وتدخين «المداعة» أو «الرشبة» بعيداً عن البيوت التي لم يكن التدخين فيها مقبولاً، كما كانوا يقضون أوقاتهم في لعب «البطّة» وأحاديث السمر.

وكانت رفوف الدكان تضم بضائع متجاورة تبدو غريبة في تنوعها، من صناديق الحنضل وأكياس الشاي السيلاني المعروف بـ«أبو ولد» إلى جرار اللخم القريني، في مشهد

يعكس بساطة الحياة التجارية في تلك الأيام. وإلى جانب دكان بن عبيد، كانت هناك دكاكين عقيل والبكيري ومنصور، غير أن دكان سقاف بن حسين كان يتميز عنها بشيء من السعة والتنظيم وحسن الترتيب.

وأمام ذلك الدكان كانت تمتد ساحة واسعة تحولت إلى ملعب مفتوح لأطفال الحي، ومن بينهم عسكول، الذي اعتاد مع رفاقه أن يمارس فيها كرة القدم أو يتبادل البطاقات المصورة التي تحمل صور أشهر الممثلين والفنانين المصريين، وهي الشخصيات التي بدأ يتعرف إليها أيضاً من خلال شاشة سينما سيؤن منذ منتصف الستينيات. أما خلف الدكان فكان يوجد حوش واسع تستخدمه النساء لإقامة المناسبات الاجتماعية، ولا سيما جلسات الترازيح في أمسيات شهر رمضان.

وكان كثير من الأهالي الذين يشترون بالدين يفضلون التعامل مع دكان سقاف بن حسين لما اشتهر به صاحبه من دقة في تدوين الحسابات وحفظ السجلات. وربما بسبب هذه السمعة الطيبة وقع عليه الاختيار ليكون متعهداً بتموين سجن حصن الحوارث بالمواد الغذائية. وكانت أسرة عسكول من زبائنه الدائمين، بل إن سقاف بن حسين كان يطلب من الصبي أحياناً أن يبقى في الدكان ليراقبه ريثما ينجز بعض شؤونه، أو يذهب بدراجته النارية إلى حصن الحوارث أو إلى مكان آخر.

ولم يقتصر دور الدكان على التجارة، بل أصبح مع مرور الوقت بمثابة مكتب بريد غير رسمي لحي القرن. فبعد ازدياد أعداد المهاجرين إلى المملكة العربية السعودية، خصص بريد سيؤن صندوق البريد رقم 4010 لسكان الحي، وكان سقاف بن حسين يمر عليه بصورة شبه يومية ليجمع الرسائل ثم يضعها في دكانه حتى يأتي أصحابها لاستلامها. ولهذا السبب كان عسكول يحرص عند كتابة الرسائل لبعض نساء الحي الموجهة إلى أزواجهن في السعودية على تدوين ذلك الرقم على الظروف البريدية.

ومع مرور الأعوام أصبح صندوق البريد نفسه جزءاً من حياة عسكول الشخصية؛ فمن خلاله كان يتلقى رسائل برنامج «ندوة المستمعين» الذي تبثه إذاعة «هنا لندن»، كما استقبل عبره عدداً كبيراً من المجلات القادمة من الصين والعراق والكويت، حتى إنه لم يعد يتذكر كيف أصبح مشتركاً في بعضها. وحين سافر إلى فرنسا في منتصف السبعينيات ظل يستخدم صندوق البريد ذاته لإرسال رسائله إلى أسرته في سيؤن.

وفي سبعينيات القرن الماضي طُلب من سقاف بن حسين أن يتولى الخطابة في مسجد محمد بن عمر، المعروف أيضاً بجامع القرن. وخلال تلك الفترة تزوج من ابنة هادي الدقيل، أحد عمال الحي، ورُزق بعدد من الأبناء والبنات. ثم حمل ابنه المرحوم عبد الرحمن راية الخطابة في

المسجد من بعده، وبعد وفاته تولى المهمة أخوه علوي بن سقاف، بينما أصبح أخوهما عمر بن سقاف خطيباً لمسجد طه في وسط سيئون.

وكان لسقاف بن حسين أخ يُدعى محمد، عُرف بين الناس بدماثة خلقه وتواضعه وحسن معاشرته. وقد افتتح لفترة من الزمن طاحونة للحبوب في حوش منزله، لكنها لم تكن مجرد مكان لطحن الغلال، إذ كان زبائنه يجدون فيها أيضاً مجلساً عامراً بالحكايات الطريفة والقصائد الشعبية التي يرويها صاحبها، فيخرجون منها وقد حملوا معهم ما يسد حاجتهم من الدقيق وما يبهج أرواحهم من النوادر والقصص.

عسكول في المدرسة الوسطى:

في نهاية العام الدراسي (1966/1965)، جلس تلاميذ المستوى الرابع الابتدائي في مدارس سيؤن الأربع لامتحاناتهم في مبنى المدرسة الحكومية، الكائن آنذاك وسط سوق سيئون، خلف مبنى إدارة الاتصالات وإدارة البلدية. ومع مطلع العام الدراسي التالي (1967/1966)، أُعلنت أسماء التلاميذ العشرة الذين وقع عليهم الاختيار من مدرسة القرن لمواصلة الدراسة في المستوى الأول بالمدرسة الوسطى في سيؤن، وكان اسم عسكول من بينهم.

ومع انتقاله إلى المستوى الأول من المدرسة الوسطى، وهو ما يعادل الصف الخامس، تبدلت ملامح حياته اليومية. فلم يعد يتجه صباحًا شرقًا نحو أزقة حي القرن التي ألفها، بل صار يسلك الطريق غربًا إلى منطقة بئر بن داعر، حيث تقع المدرسة في المبنى الذي شيده أبوبكر الكاف في منتصف ثلاثينيات القرن العشرين قبل أن تشتريه إدارة المعارف في مطلع الستينيات. وكان المبنى، رغم ما أصابه من تقادم وتهدم في بعض أجنحته، يُعد تحفة معمارية واسعة تضم ساحات فسيحة وحديقة ومسرحًا ومسبحًا وملاعب لكرة الطائرة وكرة السلة والتنس الأرضي، فضلًا عن موقعه الذي يتوسط مدينة سيئون.

وأحدث هذا الانتقال تحولًا كبيرًا في البيئة التي عاش فيها خلال السنوات الأربع السابقة. فبعد أن كان حي القرن هو العالم الوحيد الذي يُسمح له بالتجول فيه، أصبح ينتقل في مختلف أحياء سيئون بحجة الدراسة؛ يذهب صباحًا إلى الصفوف، ويعود عصرًا للمشاركة في الجمعيات العلمية، ثم يقصد المدرسة مساءً للمذاكرة. وأتاح له ذلك التعرف إلى زملاء جدد لم يقتصروا على أبناء أحياء سيؤن، بل شملوا طلابًا قدموا من تاربة وبور وشبام وساه وحورة والريدة والجول، إذ كانت المدرسة تضم داخلية تؤوي طلبة من مختلف مدن وادي حضرموت. ولهذا السبب أخذت صلته بأصدقاء طفولته في حي القرن تتراجع

تدريجيًا، على خلاف أخيه سالم الذي ظل مرتبطًا بمعظم رفاقه القدامى.

وكانت المدرسة الوسطى، بوصفها المؤسسة الوحيدة التي تقدم التعليم المتوسط المتكامل في الوادي آنذاك، مكتظة بالطلاب، موزعين على عدة شعب. وضمت هيئة التدريس مدرسين سودانيين، من بينهم عبد الحميد ميرغني الذي تولى تدريس اللغة الإنجليزية وفق مناهج معهد بخت الرضا، إلى جانب أساتذة بارزين مثل سالم باحميد في اللغة العربية، وعبد القادر الروش في التربية الإسلامية، وعقيل السقاف في التربية الفنية، الذي ستجمعه بعسكول لاحقًا رحلة إلى فرنسا عام 1975. كما تعاقب على إدارة المدرسة عدد من المديرين، كان من أبرزهم عبد المجيد بن هرهرة.

وكان معظم زملاء عسكول، ومن بينهم عوض باصحيح، وعلي الكاف، وفائز بازهير، وسعيد الجابري، ورمضان باجبير، وعبد الحافظ باحشوان، وعباس مالك بن قبيلة، وسعيد القرزي، وعلي الروشن، وأحمد ومحمد علي الحبشي، وغالب بافطيم الذي بدأ مسيرته الإعلامية بتقديم الفقرات وإلقاء قصائد نزار قباني في احتفالات المدرسة الوسطى بسيؤن.

وكان زملاؤه وأصدقاؤه يقبلونه رفيقًا لهم في الصفوف الدراسية، وفي جلسات اتحاد الطلبة والسينما ومكتبة الشهيد، إلا أنهم كانوا يرفضون إشراكه في مباريات الكرة

الطائرة، إذ كانوا يرون أن صغر سنه وضآلة جسمه يمثلان نقطة ضعف قد يستفيد منها الفريق المنافس.

ومن أبرز معالم المدرسة الوسطى، إلى جانب تمثال الأسد البرونزي والمسرح والمسبح الذي كان العم عوض الصالي يحرص على ملئه كل يوم خميس ليغتسل فيه الطلبة بملابسهم، مقهى بوشيخ (السيد)، الذي كان يبيع الشاي الملبن وقطع الكيك تحت ظلال الأشجار. كما اعتاد الأخوان الشكالة بيع الآيس كريم المعروف بـ«المصّة أبو عود» بصورة منتظمة، وهو ما جعل عسكول يحتاج دائمًا إلى بعض النقود.

ولكي يوفر ما يحتاجه من مصروف، كان عسكول يساعد والده في بعض الأعمال الزراعية البسيطة، ولا سيما مهمة «تفخيط» النخيل، وهي من الأعمال التي كانت تدر عليه عددًا من أنصاف الدراهم، فيستخدمها لشراء الشاي والكيك والآيس كريم، وكذلك لتوفير ثمن تذاكر السينما التي كانت تقع بجوار المدرسة مباشرة. وكثيرًا ما كان هو وبعض رفاقه يقنعون المشرف على المذاكرة المسائية بتسجيل أسمائهم على أنهم حاضرون، بينما يتسللون إلى قاعة السينما لمشاهدة أفلام رعاة البقر والأفلام الهندية، في حين كان بعض أصدقائهم يفضلون أفلام فريد الأطرش وفريد شوقي.

وتزامنت سنواته الأولى في المدرسة الوسطى مع تصاعد المد الثوري والنضال ضد الوجود البريطاني في

حضرموت والجنوب العربي عمومًا. وقبيل الاستقلال شهدت سيؤن أحداثًا سياسية متلاحقة، شارك فيها منتسبو نادي الشباب بسيؤن ونادي الوحدة في القرن وطلبة المدارس الثانوية والوسطى. أما مشاركة عسكول وزملائه من طلبة المدرسة الوسطى، فاقتصرت على الإضرابات الطلابية والمسيرات والبيانات التي كانوا يجدونها معلقة على بوابة المدرسة.

وكان لا يميل إلى الإضرابات إلا لأنها كانت تعني في نظره يومًا بلا دراسة، كما كان يستمتع بالمشاركة في المسيرات، دون أن يدرك آنذاك الخلفيات السياسية المعقدة لتلك الأحداث. وقد شارك في المسيرة الطلابية التي نظمها اتحاد الطلبة في العاشر من سبتمبر عام 1966، والتي ترتبت عليها ما عُرف لاحقًا بأحداث الرابطة احتجاجًا على المقترحات الدستورية، واستشهد خلالها زميله في الصف الأول المتوسط محمد عبد القادر جواس، كما فقد برك هبيص إحدى يديه.

وشارك عسكول كذلك في المسيرة التي توجهت إلى مقر السكرتارية البريطانية، والتي انتهت باقتلاع أعمدة الهاتف التي كانت تربطها بمعسكر حصن الحوارث. وعندما دخلت قوات الجبهة القومية مدينة سيؤن في مطلع أكتوبر عام 1967، جرى تجنيد عدد من أبناء حي القرن في جيش التحرير، من بينهم سعيد بن وليد والحوطي المعروف بـ"بوسمير".

وبعد الاستقلال، وتحديدًا في عام 1968، شهد عسكول عن قرب الأحداث العنيفة التي رافقت الصراع بين جناحي الجبهة القومية، اليمين واليسار. وأسفرت تلك الاضطرابات عن اعتقال عدد من أبناء حي القرن الذين كانوا يؤيدون أستاذه الشهيد والمناضل محمود سالم صقران، المحسوب على تيار الرئيس قحطان الشعبي، وكان من بين المعتقلين أخوه الربيع.

عسكول في الثانوية:

في بداية العام الدراسي 1972/1971 انتقل عسكول من المرحلة الوسطى، التي أصبحت تُعرف بالمرحلة الإعدادية، إلى المرحلة الثانوية. وعلى خلاف المدرسة الوسطى (بن داعر) الواقعة وسط حي الثورة بين البساتين والمنازل، والمحاطة بسور متهالك، كانت المدرسة الثانوية تقع خلف محطة الكهرباء القديمة ودار باحبيشي، بالقرب من جبل سيؤن الشرقي. وكانت مبانيها لا تزال في طور الإنشاء، ولم يكن يجاورها أي منزل، بينما كان العم أحمد بن زيلع (لويو) يبذل جهودًا مشهودة في تشجير ساحاتها، ولا سيما المنطقة المحيطة بالمطبخ ومساكن المدرسين.

وكان معظم الطلبة يرون أن موقع الثانوية بعيد عن الأحياء السكنية، غير أن عسكول، الذي كان يقيم في

الطرف الغربي من حي القرن خلف مسجد عمر حيمد، وجدها أقرب إليه من المدرسة الوسطى، حتى إنه كان يستطيع العودة إلى منزله أثناء فترة الاستراحة.

وفي سنته الأولى بالثانوية راود عسكول إحساس بأنه قزم بين عمالقة؛ إذ كان معظم الطلاب أكبر منه سنًا وأضخم بنية، وهو الذي التحق بمدرسة القرن وهو في الخامسة من عمره. وإلى جانب زملائه الذين انتقلوا معه من المرحلة الوسطى، مثل هود بارجاء، وعوض باصحيح، ورمضان باجبير، وحسين بن جديد، وحاج باوزير، وخميس عوض، ويحيى المشهور، وعبد الحافظ باحشوان، كان في الصفوف العليا طلاب كثيرون من مختلف مدن وقرى السلطنة الكثيرية، مثل ساه وتاربة وتريم والحوطة، بل وحتى من شبام التابعة آنذاك للسلطنة القعيطية. وكان المرحوم عبد المطلب جبر يدرس في المستوى الثالث، وصالح مطبق في المستوى الثاني، وكانوا جميعًا يبتسمون كلما وقع بصرهم على عسكول لصغر سنه وقامته.

كما كان بعض أولئك الطلاب من نجوم الأندية الرياضية في الوادي؛ فحسين بن جديد وصالح عبد الله كانا من أعمدة نادي الأحقاف، بينما مثّل عوض باصحيح ورمضان باجبير وسعيد باجيدة والحارس عوض بن عبادة نادي الأهلي.

وضمت المدرسة مباني مخصصة لإقامة الطلبة الوافدين من خارج سيؤن، وهناك تعرّف عسكول إلى عدد منهم، مثل سعيد الجابري وحاج باوزير من ساه، وحسين العيدروس ومبارك سعد من تاربة، وسهل بن سهل وجنيد محمد الجنيد من تريم، وأحمد خميس من قاهر. كما احتوت المدرسة على مساكن للمدرسين، ومطبخ يشرف عليه يسلم بشير، ومختبر واسع أجرى فيه الطلاب تجارب علمية شملت تشريح الطيور والضفادع، إضافة إلى مكتبة غنية كانت تضم كتبًا باللغة الإنجليزية أكثر مما تضم بالعربية. وفي إحدى تلك السنوات أتيحت لهم فرصة الاستماع إلى الشاعر عبد الله البردوني في إحدى الفعاليات الثقافية.

وتزامنت سنوات دراسة عسكول في الثانوية مع مرحلة سياسية مضطربة شهدتها جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية، بما فيها أحداث الثورة المضادة بين عامي 1971 و1974. وانعكس ذلك على الحياة المدرسية بوضوح؛ إذ أصبح الطلبة يرددون قسمًا خاصًا في الطابور الصباحي، الذي نُقل لفترة إلى الساحة الواقعة أمام محطة الكهرباء القديمة، وهي الساحة نفسها التي كانوا يمارسون فيها كرة القدم عصرًا، لوقوعها في نقطة تتوسط المدرسة الثانوية ومدارس القرن. كما استُبدل لون القمصان المدرسية من الأبيض إلى الكاكي، وشارك الطلبة في مسيرات تضامنية ومبادرات جماهيرية مختلفة،

بل شهدوا تنفيذ أحكام بحق بعض المتهمين بالانتماء إلى الثورة المضادة. أما حصة التربية الرياضية فقد اكتسبت طابعًا شبه عسكري تحت إشراف المرحوم حسن بلفاس، في حين ظل الطلاب يمارسون الرياضة الحقيقية في الشتاء عندما كانوا يتسلقون الجبل الشرقي حتى يبلغوا بقعة ملحية في منتصفه.

وفي المستوى الأول الثانوي كانت الدراسة مشتركة بين عدة شعب. وعند نهاية العام حقق عسكول نتائج ممتازة، حتى في مادة الرياضيات التي سيقوم بتدريسها لاحقًا بعد تخرجه في مدرسة النهضة. ولأن إدارة المدرسة كانت توزع أصحاب الدرجات العليا على القسم العلمي، أُدرج اسمه مع أخيه سالم ضمن هذا القسم، لكنه أصر على الانتقال إلى القسم الأدبي. فتقدم بطلب إلى مدير المدرسة الأستاذ عبد الله محمد هاشم، الذي خلف أبوبكر عباد في الإدارة، غير أن المدير رفض في البداية رفضًا قاطعًا، قبل أن يوافق بعد إلحاح طويل استمر نحو أسبوع. وبعد انتقاله إلى القسم الأدبي لم يجد أي صعوبة في الدراسة، بل دخل في منافسة مستمرة مع زميله يحيى المشهور على المركز الأول.

وضمت الهيئة التدريسية آنذاك مدرسين سوريين وفلسطينيين ومصريين، إلى جانب عدد من المدرسين الحضارم، من أبرزهم عمر محسن الكثيري الذي درّسهم

الاقتصاد السياسي لفترة قصيرة قبل انتقاله إلى جامعة عدن، وكذلك جارهم المرحوم حسن بن عبيد اللاه السقاف، مدرس التربية الإسلامية. وكان حسن السقاف يدرك أن طلبة المستوى الثالث لا يتحمسون كثيرًا لحضور حصته، حتى إنه كان يسأل عسكول أحيانًا عندما يذكره بموعد الدرس: «وهل يوجد طلبة في الفصل؟». فإذا دخلا الصف وتأكد من حفظ عسكول لسورة يس، كتب على السبورة مطلع قصيدة أحمد شوقي «نكبة دمشق»، وطلب إليه أن يقوم بتقطيعها عروضياً.

وخلال سنوات الثانوية اعتاد عسكول قضاء معظم أمسياته في مكتبة الشهيد التي افتُتحت بجوار محطة البترول، وكان مديرها أبوبكر بارجاء ومساعده محمد بن قاضي يوكلان إليه مسؤولية الإشراف على المكتبة عند انشغالهما بالدورات التي ينظمها التنظيم السياسي للجبهة القومية. وقد ازدهرت حركة القراءة فيها بفضل نظام الإعارة وتوافر عدد كبير من المجلات العربية مثل «المصور» و«آخر ساعة» و«روزا اليوسف» و«الموعد» و«طبيبك الخاص» و«الطليعة الكويتية» و«العربي".

أما في المساء، فكان عسكول يتردد بين السينما واتحاد الطلبة. ومع أن رفاقه ظلوا يرفضون إشراكه في مباريات الكرة الطائرة لصغر بنيته الجسدية، فإن ذلك أتاح له

التفرغ لمشاهدة أفلام رعاة البقر والأفلام الهندية التي أحبها، وكانت دار السينما تقع قبالة المكتبة مباشرة.

وحتى عام 1975 بقيت مناهج الثانوية العامة في جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية تعتمد بدرجة كبيرة على المناهج المصرية، وكانت الامتحانات تُعد وتصحح في مصر. وبعد نحو شهرين من انتهاء امتحانات عام 1974، اعتاد عسكول أن يعود إلى منزله بعد صلاة العشاء ويجلس مع والدته في الحوش ليستمعا إلى برنامج «ندوة المستمعين» من إذاعة لندن. وفي إحدى الليالي فوجئ بالمذيع في إذاعة عدن يعلن أسماء المتفوقين في امتحانات الثانوية العامة، فخُيِّل إليه أنه سمع اسمه بين الأوائل. ولما التفت إلى والدته مستفسرًا، أكدت له أنها سمعت اسمه أيضًا، وأضافت بثقة أنه كان الأول أو الثاني على مستوى النتائج المعلنة.

عسكول مدرسا في مدرسة النهضة:

في مطلع العام الدراسي 1975/1974 زار عسكول عدن مرتين؛ كانت الأولى لتكريمه ضمن أوائل الثانوية العامة في أول عيد للعلم أقيم في جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية، أما الثانية فكانت للبحث عن منحة دراسية أو للالتحاق بكلية التربية العليا، بعد أن وجّه الرئيس سالمين الأستاذ سعيد عبد الخير النوبان، القائم بأعمال وزير

التربية والتعليم آنذاك، بإلحاق جميع خريجي الثانوية العامة بكليتي التربية في عدن والمكلا لمعالجة النقص الحاد في أعداد المدرسين.

وفي نهاية المطاف وافقت الوزارة على ابتعاث أوائل الجمهورية إلى الخارج في العام التالي، فعاد عسكول إلى سيئون مع عدد من زملائه فوق سطحة شاحنة «زيزو» التابعة لسعيد جروان، عبر الطريق الصحراوي الداخلي. واستغرقت الرحلة قرابة أسبوع كامل، غير أن الوقت الذي قضوه في دفع السيارة بعد غوصها المتكرر في الرمال، وحمل ألواح «البتر»، وجمع الحطب لإعداد الطعام، كان أطول بكثير من الساعات التي أمضوها فوق سطح الشاحنة نفسها.

ولدى عودته إلى سيؤن، وبينما كان ينتظر تنفيذ قرار الابتعاث، كان عليه أن يؤدي عامًا من الخدمة الوطنية بالتدريس من دون راتب. فعينه مكتب التربية بسيؤن أولًا في المدرسة الإعدادية ببلدة قسم شرقي تريم، لكنه ما إن وصل إليها حتى اكتشف أن المدرسين يقيمون في عزبة مشتركة يتحمل كل واحد منهم نفقات الإقامة والطعام، وهو ما لم يكن في مقدوره. فعاد إلى سيئون وأبلغ المسؤولين بعدم استطاعته الاستمرار هناك، فقرروا نقله إلى إعدادية حوطة أحمد بن زين.

غير أن الأستاذ أحمد بن صافي، رحمه الله، تدخل في الأمر وقال للمسؤولين: «ما دام عسكول الأول على الجمهورية، فليذهب إلى مدرسة النهضة، وليجعل أبناءنا جميعًا من الأوائل». وهكذا استقر به المقام في مدرسة النهضة وسط سيؤن.

وفي صباح يومه الأول، وما إن دخل عسكول بوابة المدرسة حتى وجد مديرها، أستاذه السابق ميم السقاف، وبرفقته الأستاذ محبوب فرج أمان وعدد من المدرسين، منشغلين بالتحقيق في واقعة غريبة؛ إذ كانوا قد أخرجوا التلاميذ من عدة صفوف وشرعوا في إملاء نص واحد عليهم جميعًا لمحاولة التعرف إلى الطالب الذي كتب عبارات مسيئة بحق مدير المدرسة وعلقها على أحد الجدران. وانضم عسكول إلى التحقيق، وكان المعيار الذي اعتمدوه هو البحث عن التلميذ الذي يكتب كلمة «اللجنة» بلام واحدة، لكن المفاجأة أن معظم التلاميذ تقريبًا فعلوا ذلك، سواء عن خطأ أو عن رغبة في التمويه والتضامن مع صاحب الورقة.

وسرعان ما أدرك زملاؤه المدرسون أنه انضم إلى الهيئة التدريسية، فسارع كثير منهم إلى تقديم طلبات إعفاء من تدريس المستوى السادس، وهو آخر مستويات المرحلة الإعدادية آنذاك، وكانت امتحاناته النهائية تشرف عليها إدارة التربية مباشرة. وافق المدير على تلك الطلبات،

وأسند إلى عسكول تدريس معظم مواد ذلك المستوى، بما فيها اللغة العربية واللغة الإنجليزية والتربية الإسلامية والتربية الفنية والتربية الوطنية، فضلًا عن تكليفه بتدريس مادة الرياضيات للمستوى الخامس.

وكان من بين زملائه في هيئة التدريس، إلى جانب ميم السقاف ومحبوب فرج أمان، حبشي السقاف، وعلوي السقاف المعروف بالكاتلي، وسالم مصطفى السقاف، وطه السقاف (رباعي)، ومحمد بن بصري الذي كان يمتنع عن استلام راتبه اعتراضًا على تحويل مدرسة النهضة إلى مؤسسة حكومية. ورغم كثرة عدد المدرسين المعينين في المدرسة، فإن عسكول لم يكن يرى بعضهم إلا في ليالي السمر والأمسيات التي اعتاد علوي الكاتلي تنظيمها شهريًا في حوش آل بن جديد بمنطقة علم بدر.

وكان عدد من المدرسين يغيبون عن حصصهم بحجة حضور اجتماعات المنظمة القاعدية للجبهة القومية أو المشاركة في صلاة الجنازة في مسجد طه أو المساجد المجاورة، وإن كان يبدو في كثير من الأحيان أنهم يستغلون تلك المناسبات لشراء الخضروات من السوق، إذ كانوا يعودون قبيل انتهاء الدوام وهم يحملون حزمًا طازجة من البقل.

أما مدير المدرسة ميم السقاف، فكان يحرص على عقد اجتماعات أسبوعية للهيئة التدريسية، يتولى خلالها

علوي الكاتلي تقديم الشاي والبقل للحاضرين، بينما كان محمد بن بصري يخص عسكول في كل اجتماع تقريبًا بقصيدة جديدة كتبها أو ترجمها عن الإنجليزية. وظلت بعض أبيات تلك المحاولات الشعرية عالقة في ذاكرته، واستعادها بعد سنوات عندما أهداه صديقه محمد ديوانه «لمن يغني العصفور؟"

ولم تمض فترة طويلة حتى اكتشف عسكول أن عددًا من طلبة المستوى السادس كانوا من جيرانه أو أصدقائه، مثل يحيى واكد، وخالد المساوى، وخالد سالم مصطفى السقاف، وعبد الله برك بالطيور، وعدنان علي السقاف، ومحفوظ بكار، وهود أبوبكر السقاف، ومبارك سعد، الذي كانت والدته تؤكد أنه وُلد في الليلة نفسها التي وُلد فيها عسكول. بل إن بعض تلاميذه كانوا يكبرونه سنًا.

وفي الصفوف الأدنى تعرف إلى حبشي بن عقيل ومجموعة من الطلبة المشهورين بالمشاغبة، ممن كانوا يجعلون من الصعب على أي مدرس أن يكمل حصته في هدوء. وسرعان ما أدرك أن هذه الفوضى كانت سببًا رئيسًا في عزوف كثير من زملائه عن تدريس المستوى السادس. وكان ميم السقاف لا يزال يؤمن بالعقاب البدني، وقد سبق أن عاقب عسكول نفسه عندما كان تلميذًا في مدرسة القرن.

أما عسكول، فكان يرفض من حيث المبدأ ضرب التلاميذ، وإن لم يكن يحتمل الفوضى داخل الصف. ومع ذلك، اضطر في أحد أيامه الأولى إلى صفع أحد الطلبة المشاغبين، فسقط مغشيًا عليه، مما أثار فزعه ودفعه إلى استئجار سيارة أجرة لنقله إلى المستشفى، غير أن التلميذ استعاد وعيه قبل الوصول وعاد إلى حالته الطبيعية كأن شيئًا لم يكن.

وخارج أسوار المدرسة، كان يلتقي بكثير من تلاميذه أمام شباك سينما سيئون، أو حول طاولة تنس الطاولة في مقر اتحاد الطلبة، أو فوق سور ساقية البلاد في شارع الجزائر مقابل مكتبة الشهيد. وكانوا جميعًا يعلمون أنه ينتظر السفر لإكمال دراسته في الخارج، ولذلك رحبوا بفكرة تأسيس فرقة مسرحية معه. فكتب لهم مسرحية عرضها على الأستاذ المؤرخ جعفر السقاف، مدير مكتب الثقافة ورئيس لجنة النصوص آنذاك، الذي لم يوافق على إجازتها إلا بعد سلسلة من التعديلات. وبعد إقرارها، قُدمت المسرحية في احتفال عيد المدرسة، ثم أُعيد عرضها خلال الرحلة التي نظمتها المدرسة إلى مدينة ساه.

عسكول يتهيأ للسفر إلى فرنسا:

في عصر يوم الأربعاء 14 مايو 1975، كان عسكول يقف في قمة أطول نخلة في مزرعة بير نفيسة بحي القرن في

سيئون عندما حضر الزميل صالح هادي مطبق، الصديق الحميم لأخيه سالم، وأخذ يناديه بأعلى صوته:

-«حصلنا منح!».

وكان عسكول هو من تولى قبل نحو ثلاثة أشهر تعبئة استمارات طلب المنح الدراسية لهما معًا.

ثم صاح صالح مازحًا: «بتعطيني منحتك؟».

فرد عليه عسكول من أعلى النخلة: «ومنحتك أنت؟».

فأجاب: «إلى روسيا».

فسأله بلهفة: «ومنحتي؟».

وحين رد صالح: «إلى فرنسا»، ارتخت عضلات يديه وكاد يفقد توازنه ويسقط من أعلى النخلة، لولا أن ساقيه تشبثتا بالجذع بقوة. وما إن استعاد تماسكه حتى انزلق إلى أسفل بسرعة خاطفة، وصافح صالح الذي بقي جالسًا على دراجته النارية من نوع «سوزوكي 125 سي سي»، ثم سأله مرة أخرى وكأنه لا يصدق: «إلى أين منحتي؟». فأعاد صالح الجواب نفسه:

-"إلى فرنسا"

في البداية ظن عسكول أن الأمر لا يعدو أن يكون مزحة، إذ كانت معظم المنح الدراسية المخصصة لطلاب جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية تتجه آنذاك إلى دول

المعسكر الاشتراكي وبعض البلدان العربية، ولم يكن يعلم أن فرنسا تقدم بدورها عددًا محدودًا من المنح لخريجي الثانوية العامة. لكن صالح أكد له صحة الخبر، وأخبره بضرورة استخراج جوازات السفر والتوجه إلى عدن لاستكمال الإجراءات.

وعندما عاد عسكول إلى أسرته وأبلغ والديه وإخوته بالنبأ، غمرتهم الفرحة، لا سيما لأن وجهته لم تكن روسيا كما كان متوقعًا. وسرعان ما انتشر الخبر في حي القرن، فتوافدت بعض الجارات على والدته يحذرنها من السماح لابنها بالسفر إلى «بلاد النصارى العرايا». غير أنها تعاملت مع تلك المخاوف بحكمة، فنذرت، إن تم سفره بنجاح، «شنقيين أمل» للشيخة سلطانة بنت علي، وشجعته على أن يبدأ في تعلم لغة البلد الذي سيقصده.

وفي مساء ذلك اليوم نفسه مر عسكول بإحدى مكتبات سوق سيؤن واشترى كتابًا بعنوان «اللغة الفرنسية في خمسة أيام»، وبدأ يقرأه بشغف. كما أعاد إلى رفوف مكتبة الشهيد، التي كان يساعد محمد بن قاضي وأبوبكر بارجاء في إدارتها، الروايات الروسية التي كان قد استعارها، مثل «الدون الهادئ» لميخائيل شولوخوف و«الأم» لمكسيم غوركي و«قصص قصيرة» لتشيخوف، واستعار بدلًا منها أعمالًا فرنسية، منها «البؤساء» لفيكتور هيجو و«الغثيان» لجان بول سارتر و«الآنسة

فيفي» لغي دي موباسان، وكأنه يودع اهتماماته السابقة ليستقبل عالمًا ثقافيًا جديدًا.

وفي صباح الخميس التالي حرص عسكول على أداء القسم الصباحي مع تلاميذه في مدرسة النهضة بشارع الجزائر، وهناك لم يفوت زميله محبوب فرج أمان، النائب السياسي في المدرسة، فرصة التعليق مازحًا بقوله: «كيف يا عمشوش؟ أصبحت من أصحاب الرأسمالية!"

وفي المدرسة وجد أستاذه وزميله عقيل السقاف بانتظاره، فقد نال هو الآخر منحة إلى فرنسا. وانطلق الاثنان معًا لتصوير شهاداتهما، ثم قصدا إدارة التربية للمصادقة عليها واستخراج صور طبق الأصل، وتسلم كل منهما تذكرة سفر بالطائرة على خط سيئون – عدن – سيؤن، إضافة إلى خطاب موجه إلى إدارة الهجرة والجوازات لاستصدار جوازات سفر تخولهما السفر إلى فرنسا وعدد محدود من الدول الأخرى، ولم يدفعا سوى رسوم طوابع الدمغة.

وفي نهاية الأسبوع التالي غادرا إلى عدن عبر مطار الغرف. ونزل عقيل السقاف عند شقيقه في حي أكتوبر بخور مكسر، بينما أقام عسكول في مكتب آل مساوى بكريتر، الذي كان يعج بأبناء سيئون الدارسين في عدن ولحج. وقبيل الظهر توجها إلى مكتب البعثات في إدارة التربية والتعليم بخور مكسر، حيث كان في استقبالهما

عبد العزيز إبراهيم، وهو أول شخص رآه عسكول يمضغ التنبل، وقد استقبلهما بحفاوة كبيرة، ثم كلف الموظف عبد الرحمن محفوظ بن شعيب بتزويدهما باستمارات الترشيح للمنحة ورسالة موجهة إلى السفارة الفرنسية.

ولأنهما لم يتمكنا من مراجعة السفارة إلا يوم السبت، أمضى عسكول يومي الخميس والجمعة مع عدد من زملائه الذين كانوا يدرسون في كلية التربية بعدن ويقيمون في داخليتها، ومنهم عبد المطلب جبر وعبد الحافظ باحشوان وعلي بن شهاب. وكان معظمهم يتردد بانتظام على مكتب آل مساوى الذي تحول إلى ملتقى لأبناء سيؤن وبريد غير رسمي لهم.

وكانت لهم عادات لا يكادون يحيدون عنها؛ فاحتساء الشاي في مقاهي المعلا، وتناول وجبة الصيادية في مطعم جمال، والعشاء في مطعم زمزم بكريتر، ثم التوجه كل يوم جمعة إلى ساحل جولد مور للسباحة. واندمج عسكول معهم في تلك الطقوس طوال فترة إقامته، وقبل أن يودعوه أوصوه بألا ينساهم عندما يعود من فرنسا في الإجازة الصيفية، وكانت لكل واحد منهم طلبات محددة ينتظر أن يجلبها معه.

وفي صباح السبت قصد عسكول مع عقيل السقاف السفارة الفرنسية، حيث سلم كل منهما جواز سفره. غير أن نقص الصور الشخصية المطلوبة اضطرهما إلى العودة

صباح الأحد لاستكمال الملف، وهناك أُبلغا بضرورة الاستعداد للسفر في مطلع شهر سبتمبر. وبعد انتهاء الإجراءات مرا على مكتب اليمدا وحجزا مقعدين للعودة إلى سيؤن على رحلة فجر يوم الاثنين الموافق 19 مايو 1975، ليبدآ مرحلة جديدة كانت ستغير مجرى حياتهما.

في مطار الغرف:

في مساء يوم السبت، غرة رمضان سنة 1395هـ، الموافق للسادس من سبتمبر 1975م، وبعد صلاة التراويح، مرّ الجار طه علي السقاف، الذي كان يعمل في إدارة التربية بسيؤن، وأبلغ عسكول بضرورة الحضور صباح اليوم التالي إلى الإدارة لاستلام تذكرة السفر إلى عدن، ومنها إلى فرنسا.

وفي الصباح قصد مكتب التربية، ثم توجه إلى مكتب اليمدا، حيث تسلم تذكرة سفره على الرحلة المقررة يوم الثلاثاء الثامن من سبتمبر. وبعد ذلك مرّ بالبنك الأهلي اليمني وطلب من صالح بن مزروع، ابن أخت والده وأحد موظفي البنك، مساعدته في تحويل مائتي دينار إلى دولارات أمريكية، إلا أن الأخير اعتذر موضحًا أن ذلك لا يمكن إنجازه إلا بعد إبراز جواز السفر والتأشيرة وتذكرة السفر إلى فرنسا، وطمأنه بأنه سيتمكن من صرف الدنانير بسهولة عند وصوله إلى عدن.

وفي مساء اليوم التالي جمع الوالد سعيد أبناءه وبناته وعائلاتهم حول مائدة الإفطار لتوديع عسكول قبل سفره. وعند فجر يوم الثلاثاء، وقفت والدته العنود تودعه والدموع تملأ عينيها، وقدمت له نسخة صغيرة من كتاب «حصن الحصين» وسجادتها، ثم أوصته قائلة: «لا تترك الصلاة أبدًا، واكتب لنا أول ما تصل إلى فرنسا». وبعد أن ودع إخوته وأخواته، انفرد به والده عند بوابة المزرعة، راغبًا في أن يوصيه بكلمات لا يسمعها سواه.

وقد تركت تلك اللحظات أثرًا بالغًا في نفس عسكول حتى كادت تبكيه. فالوالد، كان قد رفض في وقت سابق سفر ابنه الأكبر للعمل في السواحل، رغم أن أبناء أخته من آل بن مزروع استخرجوا له الجواز والتذاكر، لأنه كان يرفض فكرة مغادرة حضرموت. لكنه رأى في طلب العلم أمرًا مختلفًا، واستشهد بقول النبي ﷺ في الحث على طلب العلم، ثم ختم وصيته بكلمات ظل صداها يرافق ابنه طويلًا: "الله الله في الجودة".

وقبل أن تنتهي تلك الخلوة، وصل الجار عبد الله محمد سالم السبايا، المعروف بعبادي، وكان هو الآخر متجهًا إلى عدن استعدادًا للسفر إلى بلغاريا للدراسة. ولما علم أن صهر عسكول، سعيد مطينقا (سعدان)، الذي يعمل في مطار الغرف ويقود سيارة اليمدا يوميًا، سيأتي لاصطحابه، اقترح أن يرافقه إلى المطار. ولم يتأخر

الصهر في الحضور، فانطلقوا جميعًا حتى وصلوا إلى مطار الغرف بعد نحو عشرين دقيقة، حوالي الساعة السابعة والنصف صباحًا، ليجدوا عقيل السقاف قد سبقهم إلى هناك.

وكان من المقرر أن تصل طائرة اليمدا من طراز دوغلاس قادمة من عدن في الثامنة صباحًا. وبعد الانتهاء من إجراءات السفر البسيطة، التي اقتصرت على تسليم التذاكر وشحن الأمتعة، لم يبق أمام المسافرين سوى الانتظار في تلك البقعة الصحراوية المعزولة. ولم يكن في المطار سوى غرفة صغيرة خُصصت للنساء، وحمام يخلو من الماء، بينما جلس الرجال في الظلال القليلة التي يلقيها المبنى، ثم ما لبث معظمهم أن تمدد على الأرض واستسلم للنوم.

ولم يستيقظ عسكول إلا عندما زحفت الشمس وتقلصت مساحة الظل قرابة الساعة الحادية عشرة، بعد أن تأخرت الطائرة في عدن بسبب عطل فني. وكان جميع من حوله قد استيقظوا كذلك يتصببون عرقًا من شدة الحر، فيما اتجه بعضهم إلى البئر الواقعة غرب المطار، حيث توجد سقاية ونخلة وحمام للرجال، فأخذوا يستخرجون الماء للوضوء أو الاغتسال طلبًا للانتعاش.

وحين حان وقت صلاة الظهر انتقل الجميع إلى الجهة الشرقية من المبنى، حيث بقي شيء من الظل، وأفسحوا

المكان لأحد السادة الذي بدا من هيئته رجلًا صالحًا. وما هي إلا لحظات حتى تقدم إليه أحد المسافرين، وكان يرتدي معوزًا ويتعمم بقطعة قماش ويلتحف بأخرى، وسأله: «يا حبيب، نحن الآن في حكم المسافرين، أليس كذلك؟ هل يجوز لنا أن نجمع ونقصر الصلاة؟». فأجابه الرجل بهدوء: «نعم، الدين يسر وليس عسرًا.«

وسرت الفتوى بين الحاضرين فأدخلت السرور إلى نفوسهم، وتوجهوا إلى البئر يتوضؤون واحدًا تلو الآخر، ثم صلوا الظهر والعصر جمعًا وقصرًا، بينما بقيت الطائرة غائبة عن الأنظار. ومع ذلك ظل الرجل يطمئنهم قائلاً إنها ستصل قريبًا.

وعند الساعة الثانية بعد الظهر عاد المسافر نفسه ليسأل الحبيب مرة أخرى: «وهل يجوز لنا أن نفطر في هذا الحر؟». فأجابه: «يجوز للمسافر أن يفطر، على أن يقضي ما أفطره بعد ذلك»، ثم أخرج من متاعه قرصين من مكعك تريم وقدم له أحدهما هدية.

تناول الرجل نصف القرص، ثم عرض ما بقي منه على من حوله، لكن عقيل السقاف اعتذر ضاحكًا قائلاً إنه لا يريد أن يدخل النار من أجل «فتفوت مكعك». بعدها نادى الرجل زوجته من داخل مبنى المطار، وسلمها ما تبقى من القرص، وطلب منها أن تحضر له رشبته وأن تستخرج لها ماءً من البئر. فاستجابت لطلبه، وملأت الرشبة بيديها

المخضبتين بحناء السفر، ثم أعادتها إليه. وجمع الرجل بعض العيدان وأشعلها، وقبل أن يهيئ مداعته ويضع الجمر فوق التبغ قال لمن حوله: «أنا لا أستغني عن البوري بعد الإفطار، وما دام الحبيب قد أفتانا بأننا في سفر وأباح لنا الفطر، فلا بد أيضًا من الرشبة».

تقبل معظم الحاضرين الأمر بابتسامة، غير أن عبادي السبايا لم يفوت الفرصة ليهمس إلى عسكول وعقيل السقاف ساخرًا: «إن لم تكن فتوى الحبيب صحيحة، فإن هذا البدوي سيدخل جهنم من أوسع أبوابها".

وفجأة، وبعد أن أنهى الرجل تدخين مداعته، ظهرت الطائرة أخيرًا وهي تمر فوق مدرج المطار، ثم اتجهت شرقًا قبل أن تعود وتستقر بجوار المبنى. فوقف الجميع يراقبون الركاب وهم ينزلون منها، وما إن مضى نحو ربع ساعة حتى بدأ الصعود إليها، وفي تمام الساعة الثالثة والنصف أقلعت بهم في رحلتها نحو مطار عدن، إيذانًا ببداية مرحلة جديدة في حياة عسكول، ستقوده إلى فرنسا وتفتح أمامه أفقًا مختلفًا تمامًا عن ذلك الذي عرفه في وادي حضرموت.

الفصل الرابع

عسكول في بلاد الإفرنج

ثلاثة أيام في عدن وجيبوتي:

في عصر يوم الثلاثاء 9 سبتمبر 1975 وصل عسكول إلى عدن متعبًا وصائمًا. وبعد أن اتفق مع عقيل السقاف على اللقاء في صباح اليوم التالي بإدارة البعثات، توجه برفقة عبد الله السبايا إلى مكتب آل المساوى في كريتر، الذي لم يكن مزدحمًا على غير عادته، إذ لم تكن الدراسة في كلية التربية العليا قد بدأت بعد، كما أن كلية الطب لم تكن ستفتتح أبوابها إلا في مطلع ديسمبر من ذلك العام. أفطر الزميلان في المكتب، ثم تناولا العشاء في مطعم زمزم الذي كان يعج بالحضارم، ورغم الأجواء الرمضانية التي كانت تغلف المدينة، آثرا العودة مبكرين إلى النوم استعدادًا ليوم حافل بالإجراءات.

وفي صباح الأربعاء 10 سبتمبر 1975 توجها باكرًا إلى إدارة البعثات، غير أنهما فوجئا بأن الدوام في شهر رمضان لا يبدأ إلا عند الساعة العاشرة. وكان في المكان عدد من الطلبة ينتظرون، مثلهم، استكمال ترتيبات السفر إلى الخارج. وهناك اكتشف عسكول أنه ليس الوحيد المتجه إلى فرنسا، بل إن عدد المبتعثين بلغ عشرة، من بينهم عقيل السقاف وأبوبكر عبد الرشيد زميلان وعبد الله محمد قائد وعمر باكثير وعلي عبده وعمود حاج وفوزية

سالم، وكان الأخيران من خريجي كلية التربية العليا في تخصص اللغة الفرنسية والإنجليزية.

وقبيل الظهر سلمهم عبد الرحمن محفوظ جوازات السفر بعد أن زُينت بتأشيرات الدخول إلى فرنسا، كما تسلموا تذاكر السفر إلى باريس مرورًا بجيبوتي على متن رحلات الخطوط الجوية الفرنسية. وحدد موعد الإقلاع عصر الجمعة 12 سبتمبر، على أن يقوم كل مسافر بتأكيد حجزه في وكالة بازرعة للطيران بالمعلا. وسرعان ما اتفق أفراد المجموعة على الذهاب إليها بعد صلاة التراويح في المساء.

وبعد مغادرتهم إدارة البعثات قصدوا البنك الأهلي، الذي كان يواصل عمله حتى الثالثة عصرًا، لكن الموظفين رفضوا صرف أكثر من خمسمئة دولار لكل طالب وفق السعر الرسمي البالغ سبعة شلنات للدولار الواحد. وبقي مع عسكول مبلغ يزيد على خمسمئة شلن، فقرر استغلاله في شراء ملابس جديدة استعدادًا للسفر، إذ لم يكن يملك سوى البنطلون الكاكي الذي اعتاد ارتداءه أيام الدراسة الثانوية.

وفي آخر النهار خرج إلى شارع الطويل في كريتر، وكانت الحركة فيه نابضة بالحياة، يعج ببائعي السمبوسة والخمير واللحوح وسائر المأكولات التي يقبل عليها الصائمون قبيل الإفطار، بينما لم تكن محال الملابس قد

فتحت أبوابها كلها، فآثر تأجيل الشراء إلى ما بعد زيارته لوكالة بازرعة.

وفي المساء أكدت المجموعة حجوزاتها في الوكالة، واتفقت على أن تجتمع بعد صلاة الجمعة من اليوم التالي في شقة عمود حاج العمودي، الكائنة في إحدى شقق عمارة العمودي الملاصقة للوكالة، قبل الانطلاق جماعيًا إلى المطار. وبعد ذلك عاد عسكول إلى مكتب آل المساوى، ثم خرج مع عبد الله السبايا إلى شارع الطويل، إذ كان الأخير يرغب هو الآخر في شراء بعض الملابس، وكان خبيرًا بأسواق عدن بحكم تردده الأسبوعي عليها أثناء دراسته في معهد ناصر للعلوم الزراعية في لحج.

وكانت أغلب متاجر الملابس الرجالية تعرض قمصانًا وبناطيل محلية الصنع تتماشى مع الموضة السائدة آنذاك. ولم تكن موضة سراويل الشارلستون والقمصان ذات الياقات الطويلة قد انحسرت بعد، رغم محاولات بعض التيارات اليسارية الحد منها، كما ظلت آثار ثقافة الهيبيز بادية في تسريحات الشعر والسوالف الطويلة والأقمشة الملونة ذات النقوش الجريئة. ورغم أن عسكول لم يكن ليرتدي مثل تلك الملابس في سيئون، فإنه رأى في رحلته إلى فرنسا مناسبة لتجربة مظهر جديد، فاشترى قميصًا برتقاليًا داكنًا طويل الياقة، وآخر أبيض، وثلاثة بناطيل

ذات قصات حديثة، اثنان منها بنقوش مربعة والثالث أسود اللون.

وفي صباح الخميس طلب منه عبد الله السبايا مرافقته إلى سوق الجملة لشراء بعض الأدوات البلاستيكية. وأثناء مرورهما بسوق النساء في كريتر لاحظ عسكول أن النساء ما زلن يرتدين أزياءهن التقليدية، خلافًا لما كانت بعض الأصوات قد دعت إليه في مؤتمر المرأة الأول الذي انعقد في سيئون قبل عام. وعندما عاد إلى السوق مساءً لاحظ أيضًا أن رائحة البخور العدني التي كانت تملأ المكان في زيارته السابقة قد خفتت كثيرًا، وربما كان ذلك بسبب أجواء رمضان أو لتحولات اقتصادية واجتماعية شهدتها المدينة.

وعقب صلاة الجمعة من اليوم التالي حمل عسكول حقيبته الصغيرة واستقل سيارة أجرة جماعية إلى المعلا، ثم صعد إلى شقة عمود حاج في الطابق الرابع من عمارة العمودي، حيث وجد علي عبده وأبوبكر عبد الرشيد زميلان وعمر باكثير وعقيل السقاف قد سبقوه إلى الوصول. وكما حدث في مطار سيئون، طلب أحد الزملاء من عمود أن يكرمه بوجبة غداء قبل السفر، فاعتذر مبتسمًا وقال: «لن أقدم لك الطعام، لكن الثلاجة أمامك، وأنت وربك تصرف".

وعند الساعة الثانية ظهرًا غادر الجميع العمارة في سيارة أجرة من نوع بيجو متجهين إلى المطار. وهناك خضعوا لإجراءات تفتيش دقيقة شملت الأشخاص والأمتعة، إذ كانت السلطات تتحقق من عدم حمل أي مبالغ إضافية من العملات الأجنبية تتجاوز الحد المسموح به.

وفي الرابعة عصرًا طُلب منهم التوجه إلى الطائرة، لكن المفاجأة كانت أن الرحلة إلى جيبوتي ستتم على متن طائرة داكوتا صغيرة تابعة للخطوط الجوية الجيبوتية لا للخطوط الفرنسية. وجلس عمر باكثير إلى جوار عسكول، وقد بدا عليه القلق الشديد، واعترف بأنها المرة الأولى التي يستقل فيها طائرة، بل تساءل بجدية عما إذا كانت تلك الطائرة الصغيرة قادرة أصلًا على عبور خليج عدن، وأضاف ضاحكًا أنه يفضل الذهاب إلى جيبوتي في قارب أو حتى سباحة. ومع ذلك أقلعت الطائرة بسلام، ولم تمض ساعة حتى كانوا في مطار جيبوتي.

وهناك أُبلغوا بأن رحلتهم إلى باريس تأجلت إلى عصر السبت 13 سبتمبر، فنُقلوا إلى فندق متواضع داخل المدينة، على أن يتحملوا نفقات الإفطار والعشاء والسحور بأنفسهم. وقد أتاحت لهم تلك الإقامة القصيرة فرصة للتعرف على جيبوتي، التي بدت في نظر عسكول شبيهة بعدن من نواح كثيرة، مع اختلاف واضح في هيمنة اللغة الفرنسية وانتشار مضغ القات، إضافة إلى

اختلاف ملابس النساء اللواتي كن يكتفين بارتداء الدرع والمقرمة حتى في الشوارع.

وقبل العودة إلى الفندق أصر عبد الله قائد وعلي عبده وعمر باكثير على شراء حزمتين من القات الهرري، مؤكدين أن أسعاره أقل مما هي عليه في عدن.

وفي الثانية من ظهر السبت وصل أفراد البعثة إلى مطار جيبوتي، الذي لم يكن يتجاوز صالة واسعة تضم ميزانًا للأمتعة وطاولتين لإنهاء إجراءات السفر. وبعد أن شحنوا حقائبهم مجددًا انتهت الإجراءات بسرعة، ثم جلسوا ينتظرون الطائرة التي طال تأخرها.

ومع مرور الوقت بدأ القلق يدب في النفوس، فطلبوا من فوزية سالم وعمود حاج، بحكم إجادتهما الفرنسية، الاستفسار عن سبب التأخير. ورافقهما عسكول، راغبًا في اختبار ما تعلمه حديثًا من كتاب «اللغة الفرنسية في خمسة أيام»، لكنه لم يلتقط من الحوار سوى عبارة واحدة تتكرر على ألسنة الموظفين ...*Bientôt... bientôt*» : «*attendez un peu*»، أي: «قريبًا... قريبًا... انتظروا قليلًا".

وحين امتد الانتظار أكثر، نفد صبر عبد الله قائد، فتوجه إلى امرأة ترتدي الدرع والمقرمة، وكانت تبدو في هيئة مدنية وإن رجح الجميع أنها تعمل في أمن المطار، وسألها بالعربية عن موعد وصول الطائرة. فابتسمت

وقالت: «أعطني أولًا عودين قات، ثم أخبرك». ولم يتردد في تلبية طلبها، فقد كان لا يزال يمضغ من القات الهرري الذي اشتراه. وما إن ناولها ما أرادت حتى أخبرته بأن الطائرة ستصل بعد نحو نصف ساعة، وأنها ستغادر إلى فرنسا عند الثامنة مساءً، مطمئنةً المجموعة بأنهم سيحصلون على وجبة إفطار على نفقة الشركة.

وقد صدقت المرأة في كل ما قالت؛ فبعد نحو نصف ساعة حطت الطائرة في المطار، وفي تمام الثامنة مساءً بتوقيت جيبوتي وفرنسا كان أفراد البعثة قد استقروا في مقاعدهم على متنها، لتنطلق بهم نحو باريس، مع توقف قصير في مطار مرسيليا، إيذانًا ببدء فصل جديد من حياتهم على الضفة الأخرى من البحر المتوسط.

يوم في باريس:

في مطار جيبوتي، قبيل الساعة الثامنة من مساء يوم السبت 13 سبتمبر 1975، صعد عسكول ورفاقه إلى طائرة الخطوط الجوية الفرنسية المتجهة إلى باريس. وما إن وقعت أبصارهم على تلك الطائرة الحديثة الضخمة من طراز بوينج 707 حتى نسوا تمامًا طائرة الداكوتا الصغيرة التي أقلتهم، بحفظ الله، من عدن إلى جيبوتي. حتى الزميل عمر باكثير، الذي كان قبل ساعات يرتعد

خوفًا من الطيران، نسي مخاوفه وصعد إلى الطائرة بخفة، وكان أول من اعتلى سلمها، يتبعه عسكول مباشرة.

وعند باب الطائرة استوقفته إحدى المضيفات، التي لفتت انتباهه بأناقتها في زيها البيج المنقوش بشعار Air France، وسألته عن رقم تذكرته. ولأنه لم ينتبه إلى المقعد المخصص له، سلمها التذكرة، فقادته بنفسها إلى الصف الثالث في مقدمة الطائرة وأرشدته إلى الجلوس في المقعد المطل على الممر. وبعد دقائق عادت ترافق راكبين آخرين، أحدهما زميله عبد الله محمد قائد الذي أجلسته بجوار النافذة، الأمر الذي أسعد عسكول كثيرًا، إذ كان يخشى أن يشغل ذلك المقعد الراكب الإفريقي ذو الأنف الأفطس الذي جلس في الجهة المقابلة من الصف نفسه. ولم يفت الرجل الإفريقي أن يبتسم للمضيفة قائلاً: «ميرسي مدام». أما المقعد الذي أمام عسكول فكان من نصيب عقيل السقاف.

وقبل الإقلاع قدمت إحدى المضيفات شرحًا لإجراءات السلامة بالفرنسية، ثم بإنجليزية متعثرة مصحوبة بالإشارات. وبعدها أعلن قائد الطائرة أن الرحلة إلى باريس ستستغرق نحو سبع ساعات، تتخللها محطة قصيرة في مطار مرسيليا.

وبعد دقائق من التحليق بدأت المضيفات بتوزيع المشروبات المنعشة. اختار عسكول وعمر باكثير وعقيل

السقاف شراب الليمون، بينما طلب جاره الإفريقي كأسًا من النبيذ الأحمر. ثم قُدمت وجبة العشاء في أطباق بلاستيكية كبيرة ضمت أرزًا وربع دجاجة وقطعة جبن وخبزًا ومثلجات. وسرعان ما لاحظ عسكول أن محتويات الوجبات تختلف من راكب إلى آخر، إذ استفسر عقيل عما قُدم إليه، فلما علم بما في طبقه نادى المضيفة وطلب تبديل وجبته قائلاً: «شيكن ورايس»، فاستجابت له على الفور واستبدلت اللحم المهروس الذي كان في طبقه بالدجاج والأرز، بينما بقيت هريسة البطاطا التي سيعتادون عليها لاحقًا في المطاعم الجامعية الفرنسية ذكرى أولى من المطبخ الأوروبي.

وكانت المضيفات يسألن كل راكب عن الشراب الذي يفضله مع الطعام. واختار عسكول الكوكاكولا، في حين بدا أن معظم المسافرين فضلوا أنواع النبيذ المختلفة. وبعد الانتهاء من الوجبة جُمعت الأطباق، ثم عادت المضيفات يعرضن القهوة أو الشاي أو المشروبات الكحولية بدرجاتها المتعددة، ولبّى كثير من الركاب الدعوة.

ومع مرور الوقت خيم السكون على المقصورة. فبعد نحو ساعتين كان أغلب الركاب، بمن فيهم الجار الإفريقي، قد غرقوا في النوم، إما من شدة الإرهاق أو بفعل الرحلة الطويلة، وربما أيضًا بفعل ما وفرته الخطوط الجوية من مشروبات لم تكن تعرف التقتير. أما عسكول نفسه فقد

استسلم للنوم هو الآخر، وظل نائمًا حتى أيقظته المضيفة عند الثالثة فجرًا تقريبًا استعدادًا للهبوط في مطار مرسيليا.

وفي مرسيليا غادر عدد من الركاب الطائرة، بينما طُلب من المتجهين إلى باريس البقاء في أماكنهم. ومع فتح الأبواب شعر الجميع ببرودة الجو، فوزعت المضيفات بطانيات صوفية خفيفة بلون يشبه لون أزيائهن. وبعد توقف لم يزد على نصف ساعة استأنفت الطائرة رحلتها إلى مطار أورلي سود في باريس، حيث هبطت قرابة الخامسة صباحًا. ونزل الركاب وبعضهم لا يزال ملتفًا ببطانيات الخطوط الفرنسية، حتى إن بعض السيدات الجيبوتيات استخدمنها غطاءً للرأس اتقاءً للبرد.

وفي صالة الوصول اصطف القادمون غير الفرنسيين أمام بوابة الجوازات، وكانت طوابيرهم قصيرة، فأنهوا الإجراءات سريعًا وانتقلوا إلى منطقة استلام الأمتعة، حيث شاهد عسكول للمرة الأولى الحقائب وهي تدور على سير متحرك، وهي تقنية لم تكن معروفة آنذاك في مطارات الجنوب. وعثر أفراد البعثة على جميع أمتعتهم باستثناء حقيبة فوزية سالم التي يبدو أنها بقيت في جيبوتي.

وعندما خرجوا إلى صالة الاستقبال لم يجدوا أحدًا من ممثلي المركز الوطني للخدمات الطلابية الجامعية في

انتظارهم، وكان ذلك راجعًا إلى أن اليوم يوافق الأحد، وهو يوم عطلة. وكان من المفترض أن يتولى مندوب المركز تسليمهم تذاكر القطارات إلى المدن التي سيواصلون فيها دراستهم. غير أن هذا الغياب تحول إلى نعمة غير متوقعة، إذ تمكنوا من الاتصال بسفارة جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية في باريس، فأجابهم السفير الدكتور محمد عبد القادر بافقيه بنفسه، وأصدر تعليماته إلى عدد من موظفي السفارة بالتوجه فورًا إلى المطار لاستقبالهم.

ولم تمض سوى خمس وأربعين دقيقة حتى حضر خالد فدعق الملحق الثقافي، وحسين عقيل، ومصطفى عبود، والسائق محسن عبيد العمري، واصطحبوهم إلى مقر السفارة الكائن في شارع جورج بيزه بوسط باريس.

وفي السفارة اجتمع بهم السفير ورحب بهم فردًا فردًا، ثم طلب من كل واحد أن يعرف بنفسه. وعندما جاء دور عسكول سأله مبتسمًا: «عمشوش... من الغيل أم من سيؤن؟»

ثم أضاف وهو يتأمله: «وأنت فعلًا أنهيت الثانوية؟». فقد كان مظهره يوحي بصغر سنه أكثر مما يوحي بأنه خريج ثانوية عامة. وبعد أن أجابه بالإيجاب ابتسم السفير، ورتب أماكن إقامة الجميع ليلتهم الأولى، فكلف مصطفى عبود باستضافة عسكول وعقيل السقاف، بينما توزع بقية

الطلاب على منازل موظفي السفارة أو بقي بعضهم في مبنى السفارة نفسه، مع تحديد المدن التي سيتوجه إليها كل منهم في صباح اليوم التالي.

وغادر عسكول وعقيل مع مصطفى عبود، شقيق المدرس عبد الكريم عبود الذي سبق أن درس عسكول في مدرسة القرن الابتدائية. وأقلهما بسيارته السيتروين إلى عمارة قريبة من السفارة تقع عند طرف جادة بينا، وهناك اكتشفا أن خالد فدعق وحسين عقيل يقيمان في المبنى ذاته.

واتفق الجميع على الإفطار في شقة خالد فدعق بدعوة من فوزية سالم، لكن عسكول وعقيل طلبا أولًا من مصطفى أن يصطحبهما في جولة سريعة للتعرف إلى باريس، فوافق على أن تكون بعد الرابعة عصرًا.

وكان موقع السفارة مثاليًا، يتوسط المسافة بين قوس النصر وشارع الشانزليزيه من جهة، وبرج إيفل ونهر السين من جهة أخرى. وبعد العصر أخذهم مصطفى في جولة مروا خلالها بقوس النصر، ثم تجولوا في الشانزليزيه، قبل أن يصلوا إلى ساحة تروكاديرو المطلة على برج إيفل وحدائقه الشهيرة.

وقبيل المغرب عادوا إلى الشقة، ثم انتقلوا إلى شقة خالد فدعق، حيث كانت فوزية سالم تبذل جهدها لإعداد مائدة إفطار مناسبة، معتذرة عن بساطتها بسبب تأخر حقيبتها

التي كانت تضم معظم البهارات العدنية التي أحضرتها معها.

وبعد تناول الإفطار والعشاء اقترح مصطفى عبود أن يصحبهم لزيارة بعض صديقاته الفرنسيات المقيمات في الجوار. فوافق الجميع باستثناء عمود حاج الذي فضل الراحة بعد عناء السفر.

وساروا بضع دقائق تحت المطر حتى دخلوا عمارة مجاورة، وهناك صعد عسكول لأول مرة في حياته بمصعد كهربائي إلى الطابق الرابع، حيث استقبلتهم سيدة فرنسية ترتدي تنورة قصيرة وجوارب زرقاء اللون، وبرفقتها طفل في نحو التاسعة من عمره. رحبت بهم وقادتهم إلى صالون أنيق، ودار الحديث بينها وبين فوزية سالم التي كانت تتحدث الفرنسية بصورة جيدة، بينما كان مصطفى يتدخل أحيانًا لتوضيح بعض العبارات.

ثم قدم مصطفى عسكول إلى مضيفته وأثنى عليه كثيرًا، فما كان منها إلا أن قالت بإعجاب: «برافو!». وبعد قليل دخلت سيدة أخرى ترتدي بدورها تنورة قصيرة وجوارب حمراء، ووضعت على الطاولة أكوابًا فارغة وفتحت زجاجتي شمبانيا وأورنجينا، ثم وزعت المشروبين على الحاضرين.

وكان عسكول يجلس إلى جوار الطفل فيليب، الذي حاول أن يتناول كأس الشمبانيا الموضوعة أمام ضيفه، فسارع

والدته إلى منعه قائلة: «لا يا فيليب، هذا للكبار!»، ووضعت أمامه كأس أورنجينا. لكن الصغير انتهز غفلة الجميع وارتشف قليلًا من كأس الشمبانيا، ثم نظر إلى عسكول واضعًا إصبعه على شفتيه في إشارة إلى الكتمان. ولم يكتف عسكول بمشاركته السر، بل تبادل معه الكأسين في صمت، فشرب من أورنجينا الطفل، بينما أكمل هو ما بقي في كأسه، من دون أن يبدو أن أحدًا من الجالسين لاحظ تلك اللعبة البريئة.

وعند نحو الحادية عشرة ليلًا ودعوا مضيفاتهم وعادوا إلى شقتهم، حيث وفر لهم مصطفى عبود وسادتين وبطانيتين صوفيتين ثقيلتين، وتركهما يبيتان في غرفة الاستقبال.

وفي السابعة من صباح اليوم التالي استيقظ عسكول وعقيل، وبعد نصف ساعة اصطحبهما مصطفى إلى السفارة، حيث انضم إليهما عبد الله محمد قائد، ثم أقلهم محسن العمري بسيارة السفارة إلى مقر المركز الوطني للخدمات الطلابية الجامعية، الواقع في مبنى السكن الجامعي «ساراي» بشارع جورج برنانوس، عند مدخل شارع سان ميشيل القريب من جامعة السوربون، وهو المكان الذي سيعود إليه عسكول بعد عشر سنوات ليقيم فيه مع زوجته أثناء إعداد أطروحة الدكتوراه بين عامي 1985 و1988.

وفي المركز تسلموا تذاكر القطار المتجه إلى بوردو، ثم توجهوا مباشرة إلى محطة أوسترليتز، حيث حالفهم الحظ بوجود قطار يغادر بعد قليل نحو الجنوب الغربي الفرنسي. وساعدهم محسن العمري في العثور على عربة تتوافر فيها مقاعد غير محجوزة، وفي تمام الساعة العاشرة من صباح يوم الاثنين 15 سبتمبر 1975 انطلقت الرحلة التي ستقود عسكول إلى مدينة بوردو، مدينة مونتين وفرانسوا مورياك، والتي كان يرأس بلديتها آنذاك السياسي الفرنسي جاك شابان دلماس، لتبدأ هناك مرحلة جديدة من حياته العلمية والإنسانية.

اليوم الأول لعسكول في بوردو:

خلال رحلته الأولى بالقطار من باريس إلى بوردو، صباح يوم الاثنين 15 سبتمبر 1975، لم يحدث شيء لافت. جلس عسكول بجوار النافذة، وإلى جواره عبد الله محمد قائد، بينما كان عقيل السقاف يجلس أمامهما. وطوال الرحلة ظل يتأمل الطبيعة الخضراء التي يشقها القطار، ويقارنها بالطبيعة الصحراوية والجبلية الممتدة بين سيئون وعدن. ولم يتوقف المطر طوال الطريق، كما لم ينقطع الحديث بينهم؛ فقد أخبرهم عبد الله محمد قائد أنه ينتمي إلى إحدى قرى الضالع، وأنه تزوج مباشرة بعد

امتحانات الثانوية العامة، وينتظر مولودَه الأول. كما أكد لهم أنه يفتقد القات كثيرًا... والزوجة أيضًا.

وعلى الرغم من أن قطار الأكيتين (L'Aquitaine) « كان يُصنَّف ضمن القطارات السريعة(Express) ، فإنه توقف أربع مرات قبل وصوله إلى بوردو: في أورليون، وتور، وبواتييه، وأنغوليم. وعند الساعة الثالثة والربع عصرًا بدأ القطار يخفف سرعته وهو يخترق حقول العنب الواسعة، حيث كانت أعداد كبيرة من الرجال والنساء تعمل في قطف العنب، أولئك الذين سيجد المبعوثون أنفسهم بينهم بعد عام واحد فقط، في خريف 1976.

ثم واصل القطار سيره ببطء بمحاذاة نهر القارون الذي يشق الجانب الشمالي من مدينة بوردو، قبل أن يتوقف أخيرًا في محطة بوردو سان جان. وبعد النزول من القطار وحمل حقائبهم الصغيرة، شاهدوا عند بوابة الخروج موظفًا من «كروس بوردو» يحمل لوحة كُتب عليها: «المركز الإقليمي للخدمات الطلابية الجامعية». اتجهوا نحوه، وبعد أن اطلع على أوراقهم صافحهم مرحبًا وقال: «من هنا». فساروا خلفه إلى موقف السيارات.

وضع الموظف حقائبهم بنفسه في السيارة، ثم انطلق بهم عبر جادة المارن إلى ساحة النصر، حيث كان مقر كروس بوردو يقع عند مدخل أحد الشوارع الصغيرة المطلة

عليها، ضمن مبنى يضم كذلك سكنًا طلابيًا ومطعمًا جامعيًا مركزيًا.

وفي مركز الاستقبال بالدور الأرضي استقبلتهم ثلاث موظفات؛ المديرة الآنسة مارتان، التي كان الشيب قد غزا شعرها، ثم قدمت لهم زميلتيها: مدام لكادو ذات الشعر الأشقر المائل إلى الحمرة، والآنسة موليه صاحبة الشعر الأسود. وبعد أن قدموا الأوراق والصور الشخصية، سلمتها المديرة للآنسة موليه التي بدأت بإعداد بطاقاتهم الجامعية ورسائل التوجيه الخاصة بهم، بينما أعدت لهم مدام لكادو فناجين من القهوة سريعة التحضير فوق موقد غاز صغير أثار إعجاب عسكول، حتى إنه قرر أن يشتري مثله لاحقًا.

وبعد الانتهاء من الإجراءات، أوضحت لهم الآنسة موليه، بإنجليزية مفرنسة، أنهم أول طلبة يمنيين يلتحقون بجامعة بوردو عبر الكروس، وأن عليهم التوجه صباح اليوم التالي إلى قسم تعليم اللغة الفرنسية للأجانب بجامعة بوردو الثالثة. كما سلمتهم خرائط وكتيبات تعريفية بالمدينة والمدينة الجامعية.

ثم استدعت السائق السيد «قراس» وطلبت منه أن يصطحبهم إلى القسم المالي ثم إلى المدينة الجامعية الواقعة بين ضاحيتي بيساك وتالانس. وهناك حصل كل واحد منهم على قسيمة لعشر وجبات غذائية ومئتي فرنك

فرنسي كمساعدة أولية، مع وعد باستلام المنحة الشهرية في اليوم التالي.

بعد ذلك أوصلهم السائق إلى إدارة القرية الخامسة (Village 5)، حيث أخبرتهم المديرة بضرورة دفع مبلغ ثلاثمئة فرنك كتأمين للحصول على مفاتيح الغرف. ولما أوضحوا أنهم لم يستلموا منحهم بعد، وافقت على أن يجمعوا المبلغ المطلوب لغرفة واحدة فقط، سُجلت باسم أكبرهم سنًا، عقيل السقاف.

وكانت القرية الخامسة تتألف من ستة مبانٍ تحيط بها مساحات خضراء واسعة. وعلى يمينها تقع كلية الآداب التي تضم قسم تعليم الفرنسية للأجانب، بينما يقع على يسارها المطعم الجامعي رقم ثلاثة، المعروف باسم «مطعم الغابة» لقربه من الغابة الفاصلة بين بيساك وتالانس.

أما الغرفة التي خُصصت لهم فكانت في المبنى (A) وعندما شاهدتهم البوابة فوجئت بأن ثلاثة طلاب يريدون السكن في غرفة واحدة صُممت أصلًا لشخص واحد، لكنها اضطرت في النهاية إلى تسليمهم المفتاح بعد مراجعة الإدارة. وكانت الغرفة حديثة وصغيرة، لا تزيد مساحتها على اثني عشر مترًا مربعًا، وتضم سريرًا ومكتبًا وكرسيًا وخزانة ومغسلة ومرآة وهاتفًا داخليًا.

وعندما اقتربت الساعة من السابعة والنصف مساءً، قرروا البحث عن المطعم الجامعي لتناول العشاء. دلّتهم

البوابة على موقعه، لكن عبد الله قائد عاد إلى غرفته ليجلب المظلة، لأن المطر لم يكن قد توقف.

وفي المطعم فوجئوا بطابور طويل من الطلبة والطالبات. وبعد انتظار طويل وصلوا إلى خط تقديم الطعام. واختار عسكول في أول عشاء له في بوردو حساءً، وبطاطس مقلية، وقطعة دجاج، وعلبة زبادي، وتفاحة. ولاحظ أن الخدمة لم تكن ذاتية بالكامل؛ فالعاملون في المطبخ كانوا يتولون توزيع الأطباق الرئيسية، بينما يختار الطلبة بقية المكونات بأنفسهم.

وبعد جهد عثروا على طاولة فارغة، وجلسوا إلى جانب ثلاثة طلاب من إقليم الباسك الفرنسي كانوا يدرسون اللغة الإنجليزية. وقد رحب هؤلاء بالطلاب الجنوبيين ومارسوا معهم ما يعرفونه من الإنجليزية.

وعند الساعة التاسعة مساءً خرجوا من المطعم، لكن المطر كان يهطل بغزارة. وكان الثلاثة يسيرون متلاصقين تحت مظلة عبد الله قائد حين اقتربت منهم طالبة تبحث بدورها عن مأوى من المطر. فما كان من عبدالله إلا أن أبعد المظلة عن رفيقيه وركز اهتمامه على الطالبة، تاركًا إياهما يواجهان المطر. وهكذا وصلا إلى المبنى (A) وثيابهما مبتلة تمامًا.

وحين دخل عسكول الغرفة، أضاف فورًا إلى قائمة احتياجاته العاجلة في فرنسا :مظلة كبيرة.

-المستوى الأول: فرنسي (أ):

في مساء يومه الأول في القرية الخامسة(Village 5) ، تصفح عسكول الكتيبات التي سلّمها لهم الكروس عن مدينة بوردو، والمحررة باللغتين الفرنسية والإنجليزية، فعرف أنها ميناء يتصل بالمحيط الأطلسي عبر دلتا نهر القارون، وأنها، مثل سيؤن وشبام وتريم، تفخر بتناغمها العمراني الذي أهلها لأن تُدرج ضمن قائمة التراث العالمي بوصفها تجمعًا حضريًا استثنائيًا. كما علم أن شارع سانت كاترين يُعد من أبرز معالمها، وأنه أطول شارع مخصص للمشاة في فرنسا منذ القرن السابع عشر.

ومع ذلك، ففي مختلف اللغات يكاد اسم بوردو يكون مرادفًا لأشهر نبيذ مائدة في العالم. وحين سأل أحد أصدقائه الجزائريين عن صحة هذه السمعة، أكد له أن الأمر لا يعدو أن يكون مبالغات وأساطير، وأن نبيذ بوردو لا يستحق تلك الشهرة، بل ينبغي استبعاده من قائمة الكحوليات، لأن مذاق «سيدي إبراهيم» في رأيه لا يعلوه مذاق.

كما كانت بوردو تعتز بجامعتها النشطة التي تضم أول كلية حقوق في فرنسا، وأشهر قسم لدراسات الاتصال، الذي أسسه الأكاديمي وعالم الاجتماع والصحفي روبيرت

إسكاربيت، والذي تزامن وصول عسكول إلى المدينة مع تعيينه رئيسًا لجامعة بوردو الثالثة. وكان إسكاربيت يكتب مقالات ساخرة قصيرة في عدد من الصحف الفرنسية منذ عام 1949، وقد ظل عسكول يقرأ عموده اليومي الصغير في الصفحة الأخيرة من صحيفة «لوموند» حتى وفاة صاحبه عام 2000.

وكانت كلية الآداب تضم قسمًا لتعليم اللغة الفرنسية يستقبل غالبًا طلاب الجامعات الأمريكية واليابانية والأوروبية، الذين يقضون عامًا دراسيًا لممارسة اللغة في إطار إعدادهم الجامعي، ولذلك لم يكن يستقبل عادةً المبتدئين من الدول الأخرى إلا في أشهر الصيف. ولهذا اكتشف عسكول، صباح الثلاثاء 16 سبتمبر 1975، أنه مع عقيل السقاف وعبد الله قائد العربيون الوحيدون في مجموعة المستوى الأول التي أُلحقوا بها، والتي كانت تضم اثني عشر طالبًا فقط.

وضمت المجموعة كذلك يونانيتين؛ إيفا، أقصر الجميع قامة، وماري، أطول طالبات الصف، والتي رأى أنها لا تقل جمالًا عن هيلين الإتاكية، وثلاثة يابانيين هم السيد والسيدة سيهاو، والطالبة كيماكو التي كانت تفضّل الاستلقاء تحت الشمس على أعشاب الساحة بدل حضور الدروس، إضافة إلى الهولندي اليهودي جوزيف، الذي كان يأتي كل صباح على دراجته الهوائية من وسط

بوردو، والتي باعها لاحقًا لعسكول عند مغادرته المدينة في نهاية أكتوبر.

كما ضمت المجموعة البرتغالي برفيريو بينورو، الذي أصبح فيما بعد من أقرب أصدقائه، وطاف معه في مدن إسبانيا والبرتغال، واستضافه منفردًا في بورتو عام 1977، ثم استضافه مرة أخرى مع زوجته في مارسيليا عندما أصبح قنصلًا للبرتغال هناك سنة 1986. وكان بينهم أيضًا النيجيري المشاغب فيليب، الذي كثيرًا ما دخل معه في مناقشات حادة لأنه كان يستأثر بالكلام داخل الصف، والطالبة السويدية الشقراء آن، التي كانت تحضر كل يوم أحد سراويلها إلى الخياطة لتقصيره أو إطالته.

وفي الحقيقة، كان معظم زملائهم يمتلكون معرفة أولية باللغة الفرنسية، بل إن السيدة سيهاو اعترفت بأن زوجها وهي مسجلان في المستوى الرابع للغة الفرنسية في طوكيو.

وكان من حسن حظهم أنهم وصلوا في الوقت المناسب ليلتحقوا بأول دروس منهج «De Vive Voix»، الذي كان آنذاك أحدث منهج لتعليم الفرنسية للمبتدئين الحقيقيين، وهو المنهج الذي سيستخدمه عسكول نفسه لاحقًا في تدريس اللغة الفرنسية بمعهد اللغات الأجنبية بجامعة عدن ابتداءً من أكتوبر 1981.

أما مدرستهم في الشهر الأول فكانت السيدة كلود ديبوي، وهي معلمة ذات خبرة طويلة، اعتادت أن تترك الطلبة ساعات في مختبر اللغات يرددون التراكيب اللغوية ويستمعون إلى أغنيات مثل «Ne me quitte pas» لجاك بريل، و «Le Métèque» و «Ma Liberté» لجورج موستاكي، الذي صادف أن أحيا حفلاً غنائيًا في أوبسرفاتوار بوردو خلال شهر أكتوبر، فحضروا الحفل بتذاكر خاصة.

واستمر عسكول في تلك المجموعة حتى نهاية أكتوبر. ثم، مع مطلع نوفمبر 1975، انفصل عسكول عن زميليه عقيل السقاف وعبد الله قائد إلى مجموعة أخرى كان معظم أفرادها من الأمريكيين والأمريكيات، اللواتي رأى أنهن لا يقللن طولًا أو جمالًا عن سكرتيرات البيت الأبيض. وضمت المجموعة أيضًا فتاة إيرانية كانت ترافقها باستمرار امرأة أخرى تزعم أنها والدتها، غير أن الطلبة اكتشفوا لاحقًا أن الطالبة هي الأميرة فيروز، وأن مرافقتها لم تكن سوى مربيتها وحارستها الشخصية.

وكانت معلمتهم الرئيسة في تلك المجموعة الآنسة ماري برور، التي أصبح بسرعة أحد أحب طلابها إليها، حتى غيّر لديها ما كان مترسخًا من صورة نمطية شائعة لدى بعض الفرنسيين آنذاك، مفادها أن الأمريكي ذكي حتى يثبت العكس، وأن العربي غبي حتى يثبت العكس.

وبفضل تشجيعها تمكن عسكول من إتقان اللغة الفرنسية في وقت قياسي، حتى انتقل في مطلع الفصل الدراسي الثاني من المستوى الأول إلى المستوى الثالث، الذي كانت شهادته تعادل بعض مقررات السنة الأولى في قسم الآداب الحديثة بجامعة بوردو الثالثة. وظل يكاتبها حتى نهاية ثمانينيات القرن العشرين، وكانت لا تبخل عليه بالردود.

أما حين أرسل في صيف 1977 بطاقة بريدية تحمل صورة لقصر وحديقة سيئون إلى معلمته الأولى كلود ديبوي، فقد جاءه الرد من زوجها برسالة مؤثرة كتب فيها: «شكرًا جزيلاً، ولا شك أن أستاذتك ستكون سعيدة جدًا هناك لأنك ما زلت تذكرها. ادع لها بالرحمة والمغفرة». وكانت تلك الكلمات كافية لأن تملأ عينيه بالدموع.

ولم يكن إتقانه السريع للغة الفرنسية راجعًا إلى الدروس الصفية وحدها، بل ساهمت فيه أيضًا الحياة اليومية داخل القرية الخامسة والمدينة الجامعية عمومًا. فقد كانت في كل مبنى صالات لمشاهدة التلفزيون، كما وُضعت في قاعات الاستقبال منصات تحمل باستمرار أشهر الصحف الفرنسية، وعلى رأسها «لوموند» و«سود ويست".

وفي نهاية المبنى (A) كانت توجد قاعة للحفلات الراقصة، تُقام فيها أمسيات صاخبة كل مساء سبت،

وهناك حفظ عسكول كثيرًا من أغاني فرقتي Boney M وABBA، وكذلك أغنيات جيمي كليف. كما أن شراءه في اليوم الثاني لوصوله موقد غاز صغيرًا وقهوة سريعة التحضير، إلى جانب المظلة التي كان قد قرر اقتناءها، جعل غرفته مقصدًا دائمًا لزملائه برفيريو، والسيد والسيدة سيهاو، وكيماكو، وجوزيف، وفيليب، الذين اعتادوا زيارته بعد تناول الغداء في المطعم الجامعي رقم 3، وقبل العودة إلى قاعات الدرس عند الساعة الثالثة بعد الظهر.

استكشاف بوردو:

في الأسبوعين الأول والثاني من إقامته في المدينة الجامعية الواقعة بين ضاحيتي بيساك وتالانس، اضطر عسكول إلى التردد كثيرًا على وسط مدينة بوردو في المساء بعد الدراسة. وكان هناك الباص رقم (جي) الذي يربط مركز بوردو بالمدينة الجامعية، ويقع موقفه الأخير بين كلية الآداب والقرية الثالثة، وله موقف أمام القرية الخامسة، وموقف على حافة ساحة النصر وسط بوردو، قريبًا من الكروس والمطعم الجامعي المركزي. وكانت هناك أيضًا باصات أخرى تصل المركز بتالانس وبيساك، يمكن استخدامها للتنقل بين بوردو والمدينة الجامعية. وببطاقة الطالب كان يستطيع شراء تذاكر الباص بأقل من

40% من سعرها الأصلي، كما كان يحصل بفضلها على خصومات في المكتبات والمسارح وحتى في بعض المتاجر.

وعندما ذهب عسكول برفقة الزميلين عقيل السقاف وعبد الله قائد، لأول مرة، لتناول وجبة العشاء في المطعم الجامعي المركزي، أوقفه الحارس، الذي استبعد، بسبب مظهره الصغير، أن يكون طالبًا جامعيًا، وقال له: "لا، ما أتى بك إلى هنا، يا صغيري؟ هنا لطلبة الجامعة فقط". وفهم عسكول سبب اعتراضه، فأخرج له بطاقته الجامعية، فما كان من الحارس إلا أن احتضنه وتفوّه بكلمات مديح لم يفهمها، ثم تركه يلحق بزميليه.

وفي الحقيقة، كان مظهره الصغير، الذي سبق أن أشار إلى أنه جعل زملاءه العمالقة في الثانوية العامة يرفضون مشاركته لهم في كثير من الألعاب، ولا سيما كرة الشبكة، سببًا في كثير من المشكلات التي واجهها خلال عامه الأول في فرنسا؛ فهناك بعض المطاعم وقاعات الرقص التي لا يدخلها إلا الكبار، أولئك الكبار الذين "لا يفهمون شيئًا"، كما يقول الأمير الصغير في روايته الشهيرة التي كتبها سانت إكزوبري. أما الفائدة الوحيدة التي جناها من مظهره الصغير، فكانت قدرته على شراء القمصان والبنطلونات من قسم الأولاد في المولات. ويبدو أن أهل

بوردو كانوا جميعًا من أحفاد العملاق قارقانتوا الذي كتب عنه ألفونس رابليه.

وفي البداية، كان عسكول وزميلاه يحصرون تسوقهم في دكاكين ومولات شارع سانت كاترين، الذي لا يضاهيه في النظافة والازدحام أي شارع في فرنسا كلها، والذي يتحول بعد منتصف الليل إلى شارع للكبار فقط، وكذلك في مكتبات شارع باستور، حيث تقع مكتبة مولا، أشهر مكتبة في بوردو، والتي كانت تعرض على طاولات خارجية كتبًا مخفضة الأسعار، اشترى منها جميع كتب مادة اللغة الفرنسية لتلاميذ الثانوية العامة. كما كانوا يترددون على مكتبة "مون ليفر" المتخصصة في كتب تعليم اللغات الأجنبية، والتي كان يمتلكها فرنسي مسلم من أصل تركي. وعندما ذهبوا إلى مكتبته أول مرة، بعد وصولهم مباشرة، تمعن في أشكالهم، ثم أعطى كل واحد منهم كيسًا بلاستيكيًا يحتوي على تمر تونسي، وقال لهم: "خذوا، هذا زكاة!". وفيما بعد اكتشفوا وجود مولات كثيرة قريبة جدًا من المدينة الجامعية في تالانس وبيساك وقرادنيون، وأصبحوا يشترون معظم حاجياتهم من هايبر "كازينو- جييان"، الذي يقع على بعد أربعمئة متر فقط من فيلاج 5. وحتى مكتبة "مون ليفر" اكتشفوا أن لها فرعًا خلف المدينة الجامعية.

وبالإضافة إلى التسوق والتواصل مع إدارة الكروس، كان عسكول يذهب إلى بوردو لزيارة صديقه البرتغالي بورفيريو بنيرو، الذي كان يسكن في 115 شارع بلفيل مع طالب برتغالي آخر اسمه فوستو يدرس الفنون التشكيلية، وعامل دهان برتغالي يُدعى "فرفوش"، كانوا يصطحبونه عادة معهم إلى العشاء في المطعم الجامعي. وعندما زار، برفقة بورفيريو، عصر أول يوم أحد أمضاه في بوردو، صديقهما جوزيف، اكتشف أنه يسكن في غرفة صغيرة تحت السطوح، في زقاق صغير متفرع من شارع سانت كاترين، تشبه الحياة فيه الحياة في شارع سانت كاترين بعد منتصف الليل، وبعض أزقة عدن قبل افتتاح مصنع الطماطم في الفيوش.

وعند ذهابهم للتسوق في بوردو، اعتادوا، بعد تناول وجبة العشاء في المطعم الجامعي المركزي المطل على ساحة النصر، الجلوس في مقهى تونسي يطل على الساحة، يقدم، إضافة إلى الشاي الأخضر، مختلف أنواع الحلويات العربية. وكان المقهى يرتاده فرنسيون ومغاربة وجيبوتيون. وفي ذلك المقهى عرفوا أن هناك مطعمًا مغربيًا يقدم وجبة الكوسكوس مقابل تذكرة الأكل الخاصة بالمطاعم الجامعية كل يوم جمعة وأحد. وهناك أيضًا التقوا مرة أخرى بالطالبات الباسكيات اللاتي شاركنهن الطاولة في المطعم الجامعي رقم 3 يوم وصولهم إلى بوردو.

المستوى الأول فرنسي (ب):

في شهر أكتوبر 1975 أصبح ضمن المجموعة المتقدمة من المستوى الأول. وكما سبق أن ذُكر، أصبحت مدرسته الرئيسة الآنسة ماري برور، التي كانت تستخدم منهجًا سمعيًا بصريًا متقدمًا *(Leçons de Transition)*، وهو يُعد الجزء الثاني من منهج *(Voix et Images de France)*. وتولت الآنسة برور كذلك مهمة تدريبه وزملائه على قراءة النصوص الكتابية واستيعابها. ومثل معظم مدرسي اللغة الفرنسية، كانت تحب تدريس اللغة من خلال قصائد هوغو وبريفير ونصوص سانت إكزوبري، لكنها قدمت لهم أيضًا نصوصًا مترجمة جميلة، مثل قصة "الوردة والعندليب" لأوسكار وايلد. كما دربتهم على الكتابة باللغة الفرنسية، وعندما طلبت منهم الكتابة عن شخصية أعجبتهم، اختار أن يكتب تقديمًا للشيخة سلطانة بنت علي، التي كان يزور ضريحها الواقع في حوطة سلطانة شرقي سيؤن بانتظام برفقة والدته، والتي اشتهرت برفضها الزواج.

وفي هذه المجموعة كان لدى عسكول مدرس آخر هو الأستاذ جاك مارتان، الذي درّسه، إلى جانب الحضارة الفرنسية، قواعد اللغة الفرنسية بأسلوب ذكي يعتمد على المقارنة. فكان يشجع الطلبة الأمريكيين على مقابلة

الصيغ الزمنية في اللغتين الفرنسية والإنجليزية، بينما شجعه هو على إجراء المقابلة بين الفرنسية والعربية، وهو ما ساعده على استيعاب النحو الفرنسي بسهولة ويسر.

وجاءت نتيجته في نهاية الفصل الأول من العام الدراسي 1976/1975 جيدة إلى درجة أن الأستاذ جاك مارتان أوصى بنقل عسكول مباشرة إلى المستوى الثالث، كما أقنعه بالالتحاق ببرنامج دبلوم اللغة الفرنسية التجارية الذي كان يشرف عليه، والذي تضمن بعض المواد الداخلة ضمن برنامج المستوى الثالث، فانتظم فيه مع مطلع يناير 1976.

وكان البرنامج يتكون من ثلاث وحدات دراسية مركبة وصعبة *(Modules ou Unités de Valeur)*، ويمنح في نهايته شهادة وطنية تعترف بها وزارة التعليم العالي الفرنسية والسوق الأوروبية المشتركة، فضلًا عن الجامعات المرتبطة باتفاقيات تعاون مع جامعة بوردو الثالثة. وكانت الوحدة الأولى هي وحدة اللغويات، التي تُعنى بتدريب الطلبة على فهم النصوص وإتقان مهارات التحليل والتلخيص والتركيب *(Analyse, Résumé et Synthèse)*. أما الوحدة الثانية فهي وحدة التخصص، ويختار الطالب فيها بين وحدة تدريس اللغة الفرنسية للأجانب، التي كان الأساتذة الفرنسيون يشجعونه على

اختيارها، ووحدة الدراسات الأدبية التي تمنح معادلة لثلاث مواد من السنة الأولى في كلية الآداب، وقد اختار هذه الأخيرة. أما الوحدة الثالثة فهي وحدة الثقافة الإلزامية، التي أتاحت له التعمق في التاريخ والجغرافيا والحضارة الفرنسية.

وكان من المقرر في هذا المستوى دراسة النص الكامل لرواية تيريز ديكيرو التي ألفها الروائي البوردولي فرانسوا مورياك سنة 1927. تبدأ الرواية بخروج تيريز، التي حاولت تسميم زوجها برنار، من محكمة بوردو بعد الإفراج عنها لعدم كفاية الأدلة، رغم اقتناع الجميع بارتكابها الجريمة. وقد نجح الراوي في جعل القارئ يتعاطف معها ويرى فيها ضحية لظروف قاهرة أكثر من كونها مجرمة. وكان والدها في انتظارها برفقة المحامي ليصطحبها، بينما بقي زوجها في ممتلكاته الزراعية الواسعة في أرجلوز جنوب بوردو.

وخلال رحلتها الليلية إلى أرجلوز، تسترجع تيريز حياتها السابقة وتفكر في مواجهة زوجها والاعتراف له بكل شيء، بما في ذلك نيتها التخلص منه بالسم. ثم تتطور الأحداث ليعاقبها برنار بحبسها في غرفة معزولة داخل المنزل، فلا يسمح لها بالخروج إلا يوم الأحد لحضور القداس حفاظًا على المظاهر الاجتماعية، قبل أن يشيع أنها فقدت عقلها ويعزلها مدة طويلة، ثم يصطحبها إلى

باريس ويتركها تواجه مصيرها وحيدة في شوارع المدينة.

وفي المستوى الثالث، كان عليه أيضًا حضور المحاضرات التي يقدمها الأساتذة في المدرجات حول رواية الأحمر والأسود لستاندال ورواية الأب غوريو لأونوريه دي بلزاك في المدرج رقم 700. وقد أتاحت له تلك المحاضرات التعرف إلى عدد من الطلبة الفرنسيين. وفي إحدى المرات سألته طالبة فرنسية عن البلد الذي جاء منه، فأجابها بأنه من اليمن الجنوبي، فسألته عن موقعه، فأوضح أنه يقع في جنوب الجزيرة العربية. فما كان منها إلا أن علقت قائلة: «إذن لديكم كثير من النفط هناك!». وكان ذلك في ظل أزمة النفط العالمية التي أعقبت استخدام العرب للنفط سلاحًا سياسيًا بعد حرب أكتوبر. وحين أخبرها بأن النفط لم يكن قد اكتُشف في بلاده آنذاك بدت غير مقتنعة. ومنذ ذلك الحين، وتهكمًا على مثل هذه التصورات، صار يجيب أحيانًا من يسأله بأن اليمن الجنوبي يقع في أمريكا الجنوبية. كما اكتشف أن شرطة بيساك كانت تدرج ملفات الطلبة الجنوبيين مع الوافدين من سلطنة عمان تحت تصنيف "جنوب شبه الجزيرة العربية".

وعندما علمت الطالبة اليسارية شانتال، التي كانت تواظب على متابعة لقاءات جورج مارشيه زعيم الحزب الشيوعي

الفرنسي في قاعات التلفزيون بالقرية الخامسة، أن اليمن الجنوبي دولة ذات نظام ديمقراطي شعبي، نصحت عسكول وزميليه بإحضار ما يثبت أنهم كانوا يعملون مدرسين في بلادهم، حتى يتمكنوا من الحصول على منحة شهرية مضاعفة من الكروس. فكتب إلى أخيه سالم، الذي كان يعمل مدرسًا في سيئون، يطلب منه إرسال الوثيقة المطلوبة، ووصلته بعد نحو شهرين عبر البريد المسجل. كما حصل زميلاه عقيل السقاف وعبد الله قائد على وثائق مماثلة، وبفضلها تضاعفت قيمة المنحة الشهرية التي كانوا يتقاضونها.

رحلات الكروس:

من أهم الأنشطة التي كان يتولاها مركز الخدمات الطلابية الجامعية (الكروس) في بوردو، وفي مدن فرنسا الأخرى، تنظيم رحلات شهرية للطلبة والمدرسين إلى المواقع السياحية والأثرية الواقعة في محيط المركز. وكان على الراغبين في المشاركة فيها دفع جزء من تكاليف الرحلة، مع منح خصومات كبيرة للطلبة الذين يتقنون الغناء أو التنكيت أثناء السفر بالحافلة، أو للحاصلين على منح من الحكومة الفرنسية.

ومن أبرز المواقع التي زارها عسكول في إطار تلك الرحلات خلال دراسته في جامعة بوردو 3: قصر دي

لابرد، وشاطئ أركاشون، وقصر ميشيل دي مونتيني، وبلدة كاركاسون، وإقليم الباسك. غير أن أول رحلة نظمها لهم الكروس في مطلع شهر أكتوبر 1975 كانت إلى مبنى الهوتيل دي فيل، مقر عمدة بوردو.

وفي ذلك المبنى استُقبل الطلبة بحفاوة، لكنهم مُنعوا من إدخال آلات التصوير. وكان عسكول يحمل كاميرا روسية من طراز «زينت» اشتراها في سيؤن من المصور الراحل صالح هادي مطبق، فاضطر إلى تركها خارج قاعة الزيارة. وهناك التقى العمدة الديغولي جاك شابان دلماس، الذي شغل منصب رئيس الوزراء الفرنسي بين 20 يونيو 1969 و5 يوليو 1972، وظل عمدةً لمدينة بوردو من عام 1947 حتى عام 1995. وكان قد خاض الانتخابات الرئاسية سنة 1974 عقب وفاة جورج بومبيدو، لكنه خسر أمام فاليري جيسكار ديستان منذ الجولة الأولى. وقد لاحظ عسكول شبهاً كبيراً بين ملامح العمدة وملامح بطل فيلم «العراب»، غير أن صوته الهادئ والناعم خالف تماماً الصورة التي رسمها له مظهره الخارجي، حتى إنه ربط في ذهنه بين ذلك الصوت وبين سهولة هزيمته الانتخابية.

وبما أن بين المشاركين عدداً كبيراً من طلبة معهد الدراسات الإعلامية الذي أسسه روبير إسكاربيت سنة 1974 في جامعة بوردو، فقد توجهت الحافلة بعد مغادرة

دار البلدية إلى مقر صحيفة «سود ويست Le Sud) (Ouest، وهي الصحيفة الرئيسة في إقليم أكيتين. وتجول الطلبة في مختلف أقسام المؤسسة، وفي قسم الطباعة حصل كل منهم على نموذج مطبوع لإحدى صفحات عدد ذلك اليوم.

وفي الشهر نفسه نظم الكروس رحلة إلى قصر لابرد (Château de La Brède)، الواقع في ضواحي بوردو والمرتبط بعائلة الفيلسوف شارل دي مونتسكيو، أحد أبرز مفكري عصر التنوير وأول المنادين بمبدأ الفصل بين السلطات. وتعرّف المشاركون خلال الزيارة إلى إسهاماته الفكرية، ولا سيما كتاب (روح القوانين) الذي أثّر في صياغة الدستور الأمريكي وإعلان حقوق الإنسان الفرنسي وكثير من دساتير الدول الديمقراطية، كما استمعوا إلى شروح حول كتابه الساخر (الرسائل الفارسية) الذي كثيراً ما تُدرّس نصوص منه في برامج تعليم الفرنسية للأجانب.

وفي مطلع ديسمبر 1975 شارك عسكول في رحلة أخرى إلى قصر الأديب والفيلسوف ميشيل دي مونتيني (1533-1592)، الذي حملت جامعة بوردو 3 اسمه لاحقاً فأصبحت تعرف بجامعة بوردو-مونتيني. وشاهد مع زملائه البرج الذي بناه مونتيني بجوار قصره وجعله مكتبته الخاصة، حيث كان يقضي معظم أوقاته في القراءة

والكتابة رغم مسؤولياته الطويلة عمدةً لمدينة بوردو. وبعد سنوات، وتحديداً عام 1978، اضطر عسكول إلى دراسة كتاب مونتيني الشهير «المقالات» ضمن مقررات الأدب الفرنسي المخصصة لأدب السيرة والذات، إلى جانب أعمال لروسو وفيكتور هوغو وشاتوبريان وجان بول سارتر. كما علم أن كثيراً من دارسي الصحافة يعدون هذا الكتاب من النماذج المبكرة لفن المقالة في الأدب الغربي.

ومن الرحلات التي استفاد منها أيضاً زيارته لبلدة أركاشون الواقعة غرب بوردو، وهي منتجع سياحي مطل على المحيط الأطلسي تحيط به غابات واسعة من الجهة الشرقية. وتمتاز شواطئها الرملية بصفاء مياهها، غير أن الوصول إلى الساحل يتطلب اجتياز كثيب بيلا الرملي الشهير، وهو مرتفع ضخم من الرمال. ولهذا فضّل عدد من المشاركين التجول في غابات الصنوبر المجاورة بدلاً من تسلق ذلك الكثيب.

وفي نهاية الفصل الثاني من العام الدراسي 1975-1976، نظم الكروس رحلة استمرت يومين إلى إقليم الباسك في أقصى جنوب غرب فرنسا بمحاذاة الحدود الإسبانية وساحل الأطلسي. وقضى المشاركون اليوم الأول وليلتهم في مدينة بايون، عاصمة الإقليم، وهي مدينة داخلية تمتاز بعمارتها التي تمزج بين الحجر

والخشب. ولاحظ عسكول أن كثيراً من سكانها كانوا يبدون معارضة واضحة للحكومة المركزية الفرنسية ويطالبون بالانفصال، شأنهم في ذلك شأن الباسكيين في إسبانيا. كما شارك في إحدى ساحات النزل مع بعض السكان المحليين في لعبة الكرات المعدنية الصغيرة (Les boules).

وفي اليوم التالي انتقلت المجموعة إلى شاطئ بياريتس، الذي كان يعج بالمصطافين والسياح، وقضى المشاركون ساعات طويلة في السباحة، وكادوا يفقدون إحدى طالبات بوردو التي أصرت على التوغل في مياه الأطلسي رغم أنها لا تجيد السباحة. وقد لاحظ عسكول أن كثرة الطلبة الباسكيين في جامعة بوردو ومطاعمها الجامعية ربما تعود إلى عدم وجود جامعة محلية كبيرة داخل الإقليم آنذاك.

وخلال إحدى الرحلات الأخرى زار المشاركون مدينة كاركاسون التاريخية شرق تولوز، وتجولوا في قلاعها وأسوارها العائدة إلى العصور الوسطى. وهناك أوضح أساتذة التاريخ في جامعة بوردو 3، الذين رافقوا الرحلة، أن المسلمين دخلوها سنة 703م بقيادة عنبسة بن سحيم الكلبي، وأطلقوا عليها اسم «قرقشونة»، وظلت تحت الحكم الإسلامي حتى سنة 759م.

صيف 1976:

لم تكن المنحة التي حصل عليها عسكول من الحكومة الفرنسية تتضمن تذكرة سفر سنوية لزيارة أهله في سيؤن، بل كانت تُصرف مرة كل سنتين. ولذلك وجد نفسه مضطراً إلى قضاء صيف عام 1976 في بوردو، خاصة أنه كان بحاجة إلى دراسة بعض المواد في قسم تعليم اللغة الفرنسية للأجانب في الجامعة. وبقي إلى جانبه أيضاً زميلاه عقيل السقاف وعبد الله قائد.

وفي منتصف شهر يوليو فوجئ الثلاثة بوصول أربعة من طلبة الدراسات العليا القادمين من جامعة صنعاء للمشاركة في دورة لغوية إنعاشية قصيرة في بوردو، بعد أن أمضوا سنة في دراسة اللغة الفرنسية في فيشي أو بيزانسون. وكان هؤلاء هم: عبد الرحمن المنيفي، وعبد الرحمن بن محمد بن إسماعيل العمراني، وفضل أبو غانم، وقايد نعمان الشرجبي.

سكن المنيفي والعمراني في غرف بالقرية الجامعية الثالثة، بينما فضّل قايد الشرجبي الإقامة لدى أسرة فرنسية في أطراف بوردو، أما فضل أبو غانم فقد خصص له الكروس شقة في مجمع سكني يقع في قرادينيون، غربي المدينة الجامعية، لأنه اصطحب معه بعض أفراد أسرته، ومن بينهم والدته التي كانت تتردد على المجمع

التجاري المجاور مرتدية زيها الصنعاني التقليدي. وكانت شقته تقع في الطابق الرابع والعشرين من العمارة، وقد دعا زملاءه ذات يوم إلى تناول الغداء فيها، وهناك تذوق عسكول للمرة الأولى في حياته السلتة والسحاوق بالحلبة.

وبسبب إغلاق معظم المطاعم الجامعية خلال أشهر الصيف، اعتاد أفراد المجموعة الاجتماع والطهي معاً، خصوصاً في أمسيات الصيف، وغالباً في غرفة عبد الرحمن العمراني. وكانت الاستعدادات تبدأ من مركز «كازينو-جييان» التجاري القريب من عمارة فضل أبو غانم، ثم ينتقل الجميع إلى غابة الصنوبر الفاصلة بين قرادينيون وبيساك، حيث كان المنيفي يصر على بدء الجلسة منذ الخامسة مساءً، لتستمر السهرة حتى ساعات متأخرة من الليل. ولأن عسكول لم يكن مولعاً بالنقاشات السياسية التي كانت تسيطر على أحاديثهم، كان العمراني كثيراً ما يناوله ديواناً من الشعر العربي ليشغله بالقراءة بعيداً عن تلك المناظرات.

وبعد وصولهما إلى بوردو، سلّم كل من فضل أبو غانم وقايد الشرجبي عسكول نسخة عربية من مشروع رسالة الماجستير (المتريز) التي طلبها منهما أستاذهما الفرنسي في علم الاجتماع، وطلبا منه ترجمتها إلى اللغة الفرنسية. ولم يجد صعوبة في أداء المهمة، لكنه اندهش عندما اكتشف أن الأستاذ نفسه كلف الطالبين بالكتابة في

الموضوع ذاته، وهو: التركيبة الاجتماعية التقليدية في اليمن.

وقد أتم الزميلان لاحقاً دراسة المتريز في باريس مع ذلك الأستاذ، قبل أن يواصلا دراساتهما العليا في القاهرة في الموضوع نفسه. فنشر قايد الشرجبي كتابه المعروف (الشرائح الاجتماعية التقليدية في اليمن)، بينما أصدر فضل أبو غانم كتاب (البنية القبلية في اليمن بين الاستمرار والتغير) . أما عبد الرحمن العمراني، الذي أكمل بدوره مرحلة المتريز في باريس ثم الدكتوراه في القاهرة، فقد أصدر ديواناً شعرياً بعنوان غريب من اليمن بين بغداد وباريس .وكان عبد الرحمن المنيفي الوحيد من أفراد تلك المجموعة الذي واصل حتى نيل الدكتوراه في فرنسا.

وعندما نظم كروس بوردو رحلة إلى أركاشون في مطلع أغسطس 1976، برز عبد الرحمن العمراني نجماً للرحلة، إذ أخذ ينافس الآنسة لكادو، موظفة الكروس، على استخدام ميكروفون الحافلة. وخلال الطريق ارتجل قصيدة عربية جميلة تغزل فيها بموظفة الكروس، بينما كان المنيفي يقاطعه بين حين وآخر ضاحكاً، مطالباً عسكول بترجمة الأبيات إلى الفرنسية.

وفي إحدى ليالي النصف الثاني من شهر يوليو 1976 دخل عقيل السقاف غرفة عسكول، وجلس إلى جواره قائلاً بصوت هادئ: «الحمد لله يا عسكول، أنت الآن أصبحت كبيراً، وما أحد يبقى لأحد». وما إن سمع تلك الكلمات حتى أدرك أن وراءها خبراً جللاً، فسأله بقلق عما حدث، فأجابه عقيل قائلاً: والدك... الحمد لله.

استوعب عسكول المقصود، وغطى وجهه بيديه وانفجر بالبكاء. وبعد أن هدأت ثورته النفسية، أخرج عقيل من جيبه ظرفاً كان قد وصله عبر عنوانه الشخصي، بداخله رسالة من أخيه سالم وصورة لوالده التقطت قبل ساعات قليلة من وفاته، وقد كتب فيها أن الوفاة حدثت يوم الجمعة 16 يوليو 1976.

وفي صباح اليوم التالي، وعلى الرغم من السهر والحزن الشديد، فضّل عسكول مغادرة غرفته والتوجه إلى الجامعة. وكان عقيل قد أبلغ الإدارة بخبر الوفاة، فسارع مدير القسم والمدرسون إلى تقديم واجب العزاء ومواساته في وفاة والده.

وقبيل نهاية شهر أغسطس 1976 انتهت الدراسة الصيفية في قسم تعليم اللغة الفرنسية للأجانب، وكان عسكول وعبد الله قائد قد سجلا اسميهما لدى الكروس

ضمن قائمة الطلبة الراغبين في العمل الموسمي بقطف العنب.

وفي مطلع الأسبوع الأخير من أغسطس توجها إلى بلدة سانت إيميليون، القريبة من قصر لابرد، للعمل في إحدى أشهر مزارع العنب. وهناك أُسكنا مع نحو عشرين عاملاً وعاملة، كان معظمهم من الفرنسيين المتمرسين في هذا العمل. وكان يومهم يبدأ بإفطار جماعي، ثم يتوجه الجميع إلى الحقول، حيث يحرص صاحب المزرعة على أن يعمل كل مبتدئ إلى جانب عامل محترف حتى يواكب سرعته في الإنجاز.

وقد نجح عبد الله قائد في مجاراة العامل المحترف بل وتفوق عليه، أما عسكول فكان يتأخر باستمرار في إنجاز نصيبه من العمل، وربما يعود ذلك إلى خبرة العاملة التي كانت تعمل في الصف المقابل من الكروم أو إلى نشاطها الاستثنائي. ولم يستطع الصمود في هذا العمل سوى أسبوعين، فعاد إلى القرية الجامعية الخامسة، بينما لحق به عبد الله قائد في نهاية الأسبوع الثالث.

وفي منتصف شهر سبتمبر حمل عقيل السقاف خبراً جديداً، تمثل في موافقة الحكومة الفرنسية على نقل مقر دراسته إلى مدينة نيس المطلة على البحر الأبيض المتوسط، بالقرب من الحدود الإيطالية.

عسكول في رفقة صديقه فيريو:

بعد عودة عسكول من تجربة قطف العنب في بلدة سانت إميليون، شرع في متابعة إجراءات التسجيل في جامعة بوردو. وكما سبق أن ذكر، كان ينوي إكمال الوحدات الدراسية الخاصة بدبلوم اللغة الفرنسية التجارية الذي تمنحه جامعة بوردو، قبل الالتحاق بالمستوى الأول من برنامج دبلوم الدراسات الجامعية العامة (Diplôme d'études universitaires générales) الـ DEUG في الآداب الحديثة، الذي كان يعادل Associate degree في الولايات المتحدة وكندا، والذي أصبح المكوّن الأول من الدراسات الجامعية في فرنسا منذ أن قام الوزير جوزيف فونتانيه بتغيير نظام التعليم الجامعي في فرنسا سنة 1973. وأكدت له إدارة التسجيل أنه لا يمكنه تحضير دبلومين في الوقت نفسه. لذلك أجّل التسجيل في (DEUG) للعام التالي، لا سيما أن صديقه البرتغالي بيرفيريو بينيرو (فيريو) اتخذ القرار نفسه.

وقرر فيريو كذلك أن ينتقل من شارع بلفيل في وسط المدينة والاستقرار في بيساك بالقرب من الجامعة. وبما أنه لم يستطع الحصول على غرفة في المدينة الجامعية، قرر أن يؤجر غرفة لدى إحدى العائلات التي شيّدت لها بيوتا بالقرب من المدينة الجامعية، في بيساك. وبدأا

بالمرور عند التركي صاحب مكتبة (Mon Livre)، الذي كان قد وضع إعلانا في المطعم الجامعي 3 يؤكد فيه أن لديه غرفتين للإيجار. لكنه أخبرهما أن الغرفتين أصبحتا مؤجرتين. لهذا توغلا في المنطقة التي خلف المكتبة، وكانت معظم بيوتها عبارة عن فلل متواضعة جدا، حول كل منها بضعة مترات من الأرض المزروعة ببعض أصناف الخضروات والفواكه، وسياج من الخشب. وتوقفا عند واحدة من تلك الفلل، وضغطا على الجرس، وفتحت الباب امرأة تجاوزت الخمسين من العمر، وعندما شاهدتهما قالت: "آه، أتيتم لتنظيف الحديقة؟"، وعندما قال عسكول لها بصوت متردد (لا لا.. أتينا لـ.."، شدّ فيريو ذراع عسكول وقال له: "اسكت أنت"، وقال للسيدة الفرنسية، "نعم نعم، جئنا لننجز العمل الذي لديك، كم ستدفعين لنا مقابل تنظيف حديقتك؟". ولم يختلفا مع المرأة، وشمّرا عن سواعدهما وشرعا في إزالة عيدان شجيرات الطماطم والباميا وبعض الأزهار اليابسة، ووضعاهما في أكياس بلاستيكية كبيرة بالقرب من صناديق القمامة في الشارع. وبعد أن سلمتهما السيدة جاكلين مونيه أجرتهما، سألها فيريو إن كان لديها غرفة للإيجار. وبعد أن سألته عن مهنته، طلبت منهما الانتظار ودخلت الفلة، وعادت بعد لحظات بصحبة رجل يبدو أنه قد تجاوز الخامسة والستين، ومن الواضح أنه زوجها، وكان قصير القامة مرتديا بيجاما صوفيه رمادية، وقبعة

إيرلندية مسطحة. وبعد أن حيّاهما وجّه لفيريو بعض الأسئلة عن أهله ومصدر دخله. وبعد الإجابة وافق أنْ يؤجر لفيريو الغرفة الخلفية بـ 150 فرنكا، بشرط أن يتم ذلك عبر مكتب عقاري في بيساك. وعلى فيريو أن يدفع أتعاب المكتب. وهكذا عثر صديقه فيريو، الذي أصبح سنة 1985 قنصل البرتغال في مارسيليا، على غرفة قريبة من الجامعة وبإيجار معقول جدا.

**

في اليوم التالي ذهب عسكول إلى المركز الصحي كي يستخرج شهادة اللياقة التي ينبغي أن يسلمها لقسم التسجيل بالجامعة. وكان عليه أن يخضع لخمسة فحوصات لاستخراج الشهادة، وحينما وصل عند الممرضة المختصة بفحص الضغط ونبضات القلب، وكانت (pied noir)، أي من الفرنسيين العائدين من الجزائر، قالت: "أوه أنت رياضي؟"، فاستغرب عسكول قليلا، وسألها: "ربما، لماذا؟"، فردت بالفرنسية: "نبضات قلبك قليلة". وعندما شكّت في عدم استيعابه لاستنتاجها أضافت بالعربية: "قلبك يمشي دلا دلا، تمام". ولمدة ثلاثة أيام من إجراء تلك الفحوصات استمر عسكول يحسب نبضات قلبه طوال الليل والنهار، إلى أن اقتنع أنها لا تتعدى أبدا 58 نبضة في الدقيقة، واقتنع أنه فعلا رياضي، وربط ذلك بكثرة تسلقه للنخيل في المزرعة في

سيؤن، واعتماده على الدراجة الهوائية التي اشتراها من زميله جوزيف للذهاب إلى وسط المدينة، مثل عدد كبير من سكان بيساك وبوردو الذي يتنقلون بالدراجات الهوائية إلى يومنا هذا. لكنه اليوم ترك جانبا استنتاج تلك الممرضة، وذلك بعد أنْ اكتشف أنّ قلب أخته الصغرى وقلب ابنته الكبرى "يمشيان كذلك دلا دلا".

***

وفي ذلك الفصل الأول من العام الدراسي 1977/1976، تردد عسكول كذلك على قسم اللغة العربية في كلية الآداب بجامعة بوردو3، الذي لم يتم نقله بعد من مبنى الكلية في شارع باستور وسط بوردو. وتعرف فيه على بعض المدرسين المغربيين والتونسيين، وعدد من الطلبة الفرنسيين، الذين اختاروا اللغة العربية تخصصا ثانيا إلى جانب اللغة الفرنسية، في برنامج (DEUG) الآداب الحديثة، ويحرصون على ارتياد المطعم التونسي في ساحة النصر، لممارسة اللغة العربية مع المغاربة والجيبوتيين. ومقابل تدريبهم له على كتابة الـ(la dissertation et le commentaire compose)، وقراءة رواية (الأب قوريو) لبلزاك، ساعدهم عسكول على ترجمة صفحات كثيرة من رواية (الزيني بركات)، التي نشرها جمال الغيطاني سنة 1972، وظلت ضمن مقررات القسم سنوات طويلة.

سنة (دوعنية):

كما سبق أن ذكر عسكول، كرّس معظم العام الدراسي 1977/1976 لتحضير دبلوم اللغة الفرنسية التجارية. وعلى المستوى الدراسي لم تحدث أيّة مفاجآت؛ فدراسة التجارة لن تكون صعبة لحضرمي بأي لغةٍ كانت. لكن الجانب التطبيقي كان محدودا. لهذا، في الفصل الدراسي الثاني، وجّه الأساتذة عسكول وزملاءه للذهاب إلى مدرسة بوردو للتجارة، التي تقع على بعد خمسمئة متر من مبنى كلية الآداب. وفيها اكتشف عسكول أنه لن تكون له أية علاقة بالتجارة والتجّار في المستقبل. لكنه استفاد كثيرا من ذهابه لتلك المدرسة للارتقاء بمهارات التعبير الكتابي والكلامي باللغة الفرنسية، وأتقن كذلك استخدام الآلة الطابعة التي تدرب عليها بشكل جيّد. وعلى سبيل التدريب قام عسكول بكتابة رسالة موجهة من مديرة الكروس لـزميله (المسيو قايد)، تطلب فيها منه الحضور لاستلام مبلغ مالي يقدر بألف فرنك، فارق مستحقاته للعام السابق. واستلم (قايد) الرسالة بواسطة البريد، وذهب للكروس دون أن يشعر عسكول، وهناك استغربت المديرة، الآنسة مارتان، وأخبرته أن أحد أصدقائه دبّر له (مقلبا سيئا)، وسألته إن كان يشك في هوية الفاعل. وبالطبع لم يستطع (المسيو قايد) تخمين هوية مدبر

المقلب. وكان المسيو عمشوش تحت مستوى الشبهات وكتابة رسالة من هذا النوع. وإلى اليوم لم يكتشف زميله عبد الله محمد قايد، الذي عُيِّن، بعد عودته إلى عدن، مترجما في إدارة السوق الحرة، هوية الشخص الذي حرر، ذات يوم، رسالة استدعائه إلى الكروس في مطلع سنة 1977.

وخلال ذلك العام حضر عسكول، إضافة إلى البومات الراقصة الأسبوعية في القرية 5، كثيرا من الفعاليات التي كانت تُنظّم في الجامعة، ومنها الأمسيات الغنائية التي ينظمها الطلبة العرب، وتحديدا المغاربة، تحت مسمى يوم التضامن مع القضية الفلسطينية. وقد أُعجب بشكل خاص ببعض الأغاني المغربية، مثل (الله يا مولانا)، التي دأب الطلبة المغاربة على افتتاح واختتام سهراتهم بها.

وفي مدرسة التجارة تعرف عسكول على بعض العراقيين والسعوديين الذين كانوا يتدربون أو يدرسون بها، ويتواصلون في الغالب مع الآخرين باللغة الإنجليزية. وكان بعضهم يسكنون في القرية5، وكل ليلة خميس يتجمعون عند واحد منهم، ويحضّرون الطعام في المطبخ الجماعي، ويحيون سهرة (حناني طناني) إلى الصباح. وبفضل كرمهم العربي تتحمل المنظفات في الصباح تنظيف مخلفات السهرة بصمت.

وفي نهاية العام الدراسي 1977/1976، تحصل عسكول وزميله فيريو على دبلوم اللغة الفرنسية التجارية، واستلما شهادتيهما في حفل رسمي، حضره رئيس الجامعة روبيرت اسكاربيت. وفي نهاية شهر يونيو 1977 غادر عسكول بوردو إلى باريس، ومنها إلى عدن، ومنها إلى سيئون لقضاء الإجازة الصيفية هناك مع الأهل.

البدء في دراسات الـ(Deug):

بعد أن قضى عسكول النصف الأول من شهر رمضان سنة 1397هـ مع الوالدة والأخوان والأخوات والأقارب، وشارك سكان القرن في ختم النص، غادر سيؤن إلى عدن. وهناك حجز إلى باريس عبر بيروت، على خطوط طيران الشرق الأوسط (MEA). وكانت الرحلة مساء يوم الجمعة ٩ سبتمبر 1977، وقد وصل مطار (Orly Sud) في باريس فجر يوم السبت 10 سبتمبر. وتوجه إلى مبنى سفارتهم في 25 شارع جورج بيزه. وهناك وجد عددا من الطلبة وبعض أفراد طاقم السفارة يتأهبون للذهاب إلى ضاحية كورنيف للمشاركة في عيد صحيفة (الاومانتي L'Humanite)، التي كانت حينذاك لسان حال الحزب الشيوعي الفرنسي. أما العيد فكان أضخم احتفال سياسي في فرنسا، وربما في أوربا كلها، حيث

يتجمع فيه الشباب وقادة الأحزاب والقوى اليسارية والتقدمية، وحركات التحرّر الوطني من مختلف أقطار العالم. وتشارك فيه كذلك هيئات نقابية وثقافية وأدبية وموسيقية ومسرحية، وتقام معارض كتب وفنون تشكيلية وألعاب أطفال، ومنصّات لبيع مختلف أصناف الوجبات الشعبية من فرنسا ومن خارجها. وكانت جمهورية اليمن الديموقراطية الشعبية من أبرز المدعوين للمشاركة في عيد الأومانتي. وهناك اعتمادات كبيرة ترصد لتلك المشاركة. وفي بعض السنوات يأتي من عدن ممثل عن الحزب الاشتراكي خصيصا للمشاركة في العيد.

وضع عسكول حقيبته الصغيرة في شقة محسن عبيد العمري، وذهب معه في سيارة السفارة إلى مكان الاحتفال، ومعهم جميع مستلزمات تحضير السمبوسة والباقية (الفلافل)، والخمير. وتوجه غالبية الزملاء إلى مكان العيد بالمترو (قطار الأنفاق). وهناك التقى عسكول بعدد كبير من الزملاء، بينهم أحمد الصياد والمنيفي والعمراني وحبيب سروري والمهندس المدني نصيب عبد الرحمن وابوبكر زميلان. وشارك جميع الرفاق في (تعطيف) السمبوسة وقلي الباقية والخمير. وحظيت منصتهم بإقبال كبير من مرتادي كورنيف ذلك العام. وبين الحين والآخر كان يهرب للتسكع في شوارع ساحة العيد المغطاة بمياه المطر، والتي كانت تحمل أسماء كبار المناضلين الثوريين مثل: نلسون مانديلا وروزا

لكسمبورغ ودولوريس إيباروري وسلفادور أليندي وياسر عرفات. وتضامنا مع يساريي العالم اشترى من منصة فلسطين غترة ولفها حول رقبته اتقاءً من البرد، ومن منصة كوبا اشترى قبعة كاسترووية ووقى بها رأسه من المطر.

وفي مساء يوم الأحد 11 سبتمبر 1977، عرّج عسكول على مبنى السفارة وأخذ حقيبته، وفي محطة أوسترليتز ركب القطار السريع إلى المحروسة بوردو. وفي تمام الساعة الثامنة من صباح الاثنين، 12 سبتمبر، آخر أيام شهر رمضان، كان في مكتب إدارة التسجيل لكلية الآداب، وفيه اكتشف أنّهم لم يعفوه إلا من استنهاج المادتين الاختياريتين ومادة اللغويات العامة، وعليه أن يدرس تسع وحدات دراسية (unites de valeur) خلال عامين ليحصل على (دبلوم الدراسات الجامعية العامة في الآداب الحديثة فرنسي -عربي – لاتيني).

لقد كان العام الدراسي 1978/1977 أصعب الأعوام في مسار دراساته في فرنسا؛ فقد كان عليه أن يدرس وحدة اللغة العربية في قسم اللغة العربية بشارع باستور وسط المدينة، ووحدة الأدب المقارن التي تضم نصوصا فرنسية وإيطالية وإنجليزية، إما مؤلفة باللغة الفرنسية، مثل

مسرحيات صامويل بيكيت وأوجين يونسكو، أو مترجمة مثل نصوص فيرجينيا وولف وبريشت وايتالو كالفينو، ووحدة الأدب الفرنسي1، وفيها كان هناك البحث عن الزمن المفقود لمارسيل بروست، ووحدة اللغة اللاتينية والثقافات القديمة، وفيها ينبغي تصريف أفعال اللغة اللاتينية وأسمائها، وقراءة نصوص باللاتينية، ودراسة الإنياذة والإلياذة والأوديسة مترجمة للفرنسية.

وكان النظام التعليمي في فرنسا في العلوم الإنسانية في غاية الصعوبة والفعالية، فقد كان تدريس الوحدات الدراسية يتوزع بين كثير من ساعات (الأعمال الموجهة les travaux diriges)، وقليلٍ من المحاضرات التقديمية النظرية يلقيها عليهم، عادةً في المدرج 700، أساتذة مسنون وذو خبرة طويلة في إلقاء المحاضرات بطريقة شعرية وجذابة، تجعلهم يتسمرون في مقاعدهم ساعات طويلة، على الرغم من رائحة النبيذ التي تفوح منهم، ولا تؤثر مطلقا في انسيابية إلقائهم.

ويتولى مسئولية تقييمهم في مختلف الوحدات الدراسية مدرسو الأعمال الموجهة، التي يُوزّعون خلالها على مجموعات صغيرة، لا يزيد عدد الطلبة في كل منها عن 20 طالبا. وكان الطلبة، الذين سبقوهم في العذاب، قد نصحوهم أن يختاروا المدرسين (الشريرين)، ليتجنبوهم يوم الامتحان الشفهي، إذ لا يحق للمدرس تقييم طلبة

مجموعته. وكان الامتحان النهائي يتكوّن من جزء تحريري، وجزء شفهي لا يمكنهم التقدم له إلا إذا نجحوا في الجزء التحريري.

ويرصد جزء من الدرجات لأعمال الفصل التي تتكون من المثابرة والمشاركة وكتابة ما لا يقل عن ثلاثة واجبات، يسمونها (مقالة أو كتابة نقدية مركبة (dissertation ou commentaire compose)، يمارسها الطلبة الفرنسيون وهم في الثانوية العامة. وهذا ما دفعه إلى التمرن عليها العام السابق. والراسب في أعمال الفصل يعلق المادة.

بعد عودة عسكول إلى بوردو تمّ وضعه في المبنى الذي سكنه العام السابق (batiment A) من القرية5، مع تغيير الطابق فقط، وسكن معه في المبنى نفسه الزميل عبد الله قايد. وظل فيريو في غرفته عند مسيو ومدام مونيه. لكن بالنسبة للدراسة، فقد اختار أن يلتحق بكلية الحقوق، وذلك نزولا عند رغبة أبيه الذي كان يفضل أن يصبح ابنه كاردينال، إذا لم يستطع أن يصبح الـ(بابا).

سنة أولى (DEUG) :

كان العام الدراسي 1978/1977 أصعب الأعوام في مسار دراسات عسكول في فرنسا. وإجمالا، كان العام مثمرا جدا، إذ استطاع عسكول خلاله أن يكتسب كثيرا من المهارات والمعارف والمناهج التي لا يزال يطبقها اليوم، ويحاول أن ينقلها إلى طلبته في مختلف المستويات. وعلى الرغم من أنه كان من أكثر رواد المكتبات العامة في الكلية والجامعة ومدينة بوردو، فقد اضطرر إلى إنفاق نحو 50% من المنحة في شراء الكتب - المصادر والمراجع- التي كان الأساتذة، الذين يتابعون آخر الإصدارات النقدية في فرنسا، يجبرونهم على قراءتها. هكذا اشترى كتب رولان بارت وتزيفتان تودوروف وجيرار جينيت، وفيليب لوجون .

ففي إطار وحدة (الأدب الفرنسي1) مثلا، كان عليه أن يقرأ الجزء السابع من رواية (البحث عن الزمن المفقود): الزمن المستعاد. ولم تكمن صعوبة تلك القراءة في تعقيد الجملة البروستية، وما فيها من رائحة كعكة جدته، بل في ضرورة التأكد من صحة المقولات التي ضمّنها جيرار جينيت عن هذه الرواية في كتابه) بنية الحكاية Figures (III). وبسبب تشبع عسكول بتلك المقولات قام لاحقا

بتطبيقها في قراءة نقدية لرواية (يموتون غرباء) لمحمد عبد الولي، ونشرها سنة 1982مجلة (الثقافة الجديدة)، أي قبل أن تنشر سيزا قاسم كتابها (بناء الرواية) سنة 1984. وقد اعتقد كثير من قراء (الثقافة الجديدة) حينذاك أن كاتب الدراسة كان جزائريا.

وبالمقابل، لم تواجه عسكول صعوبات كثيرة في دراسة وحدة (الحضارة اليونانية واللاتينية واللغة اللاتينية)، التي كان الطلبة الفرنسيون أبلد منه بكثير فيها، فبالنسبة له كان تصريف الأفعال اللاتينية أسهل بكثير من تصريف الأفعال الفرنسية. وكذلك الحال بالنسبة لوحدة اللغة الفرنسية القديمة (FD) ، التي كان معظمها مكرسا لتحليل قصة (تريستان وإيزولت). وفي هذه المادة كتب مقالة أدبية (Dissertation) نالت إعجاب معظم مدرسي مجموعات الأعمال الموجهة، وتحصل بفضلها على درجة جيدة دفعت أحد زملائي الفرنسيين المكبودين إلى كتابة (العربي القذر sale arabe) أمام درجته حينما وضع الأستاذ النتيجة في لوحة الإعلانات.

وبالنسبة لوحدة اللغة العربية، التي درسها عسكول في شارع باستور وسط بوردو، فقد كانت مقسمة إلى قسمين: قسم للغة والترجمة، قام بتدريسه أستاذ تونسي، كان باستخدام كتاب سيلفستر دي ساسي (Grammaire arabe)، في نسخة تونسية تعود إلى سنة 1904. وقام

كذلك بتدريبهم على الترجمة بين الفرنسية والعربية، بواسطة نصوص مختارة من رواية (الزيني بركات) لجمال الغيطاني. أما القسم الثاني من وحدة اللغة العربية فقد كان مكرسا لدراسة الأدب العربي الكلاسيكي، وقام بتدريسه مدرس جزائري اسمه محمد الأزهر، وطلب منهم قراءة كتاب أستاذه المستعرب الفرنسي اندريه ميكل (Géographie arabe et représentation du monde : la terre et l'étranger, Paris, 1975)، الذي يتضمن نصوصا طويلة من كتاب (الاعتبار) لأسامة بن منقذ. ومن شدّة إعجابه بأستاذه محمد الأزهر قمت بتوقيع عدد من مقالته التي نشرها حينذاك باسم عمشوش الأزهر، منها دراسته حول رواية (يموتون غرباء). بل أنه سمّى ابنه الأول الذي توفي سنة 2005: الأزهر. ولا يزال اليوم يدرّس كتاب (الاعتبار) لأسامة بن منقذ لطلبته في برنامج الدكتوراه، تارة في إطار أدب الرحلة، وتارة في إطار أدب كتابة الذات.

وفي سنة ١٩٧٧ حاول عسكول كتابة عدد من النصوص السردية الإبداعية باللغة العربية، أرسل بعضها إلى صحيفة (14 أكتوبر) في عدن، لعل أبرزها: تهشم مظلتي. وقد بادر الشاعر الصحفي المثقف أحمد مفتاح عبد الرب، الذي كان حينها مشرفا على صفحة (بريد القراء) في الصحيفة، إلى نشر بعضها. وكانت موقعة بالحرفين م. ع.

صيف 1978 في إيطاليا:

كان معظم زملاء عسكول في دبلوم الدراسات الجامعية العامة ـ آداب حديثة (DEUG) فرنسيين. وتصل نسبة الإناث بينهم إلى 50%. وكان عسكول من بين الأجانب القليلين في البرنامج، إلى جانب طالب نيجيري، وطالب تونسي يذكره دائما بالأديب الفرنسي أندريه جيد، وطالبة أفغانية لا تعرف القَسَم إلا بعلي. وبالنسبة للمدرسين تتساوى نسبة الذكور ونسبة الإناث، لكن جميع الأساتذة المحاضرين كانوا ذكورا ومسنين، ومن النادر أن يحتك بهم عسكول عن قرب. وكانت العناصر النسائية من بين مدرسي مجموعات الدراسات الموجهة هي الأقرب للطلبة، وكانت تسعى إلى خلق الألفة بينهم من خلال تنظيم أنشطة لاصفية متنوعة، تتركز في الغالب في الذهاب لمسرح بوردو الكبير لمشاهدة المسرحيات الكلاسيكية، أو إلى المعارض الفنية التي تكثر في مدينة بوردو.

وفي الحقيقة كانت بوردو ولا تزال تشهد اهتماما كبيرا بالفعاليات الثقافية والفنية، التي تفاعل معها عسكول كثيرا خلال سنوات دراسته فيها، إلى درجة أنه أصبح يعجب مثلهم بجمال اللوحات الجدارية مثلما يعجب بجمال الكثبان الرملية في صحراء السبعتين في أطراف الربع

الخالي القريبة من أرض أجداده: زمخ ومنوخ. وبسبب ذلك قبل عسكول العمل حارسا في المعرض الذي افتتحه البرتغالي فوستو زميل صديقه فيريو، مع زوجته الفرنسية وسط بوردو. بل إنه قبل مقترح زميله (البوردلي) الفرنسي جان فيبير، للقيام، في مطلع صيف 1978، بجولة في مدن إيطاليا لمشاهدة أكبر عدد ممكن من المتاحف. ومن أجل ذلك استخرج بطاقة الطالب العالمية، واشترى شيكات سفر قابلة للصرف في أي مكان من البنك الأمريكي.

وبعد أن كانا قد قررا السفر بسيارة جان فيبير، البيجوت القديمة، اضطرا في آخر لحظة السفر بالقطار. وعندما توقف القطار في جنوا، الواقعة في الحدود الإيطالية الفرنسية، دخل بعض رجال الأمن الإيطاليين وسألوهما إن كان لديهما كميات تجارية من الكحول الفرنسي، وهو الشيء الوحيد الذي يحرصون على عدم تسربه إلى بلادهم أكثر مما يحرص رجال الجمارك في معظم الأقطار الإسلامية على عدم تسربه إلى بلادهم. وبعد أن توقفا ساعتين في بيزا للتأكد من ميلان برجها، واصلا رحلتهما باتجاه (فيرانزيه أو فلورنسا Firenze)، التي عاش فيها دانتي وبترارك وليونارد دافنشي وماكيفل. ومكثا فيها ثلاثة أيام جربا خلالها الحياة في مخيّم الشباب، فوق

العشب. وزارا عددا كبيرا من المتاحف، منها متحف الدومو والسانتا ماريا والأوفيس، ومعرض الأكاديمية الذي شاهد فيه عسكول التمثال الذي نحته مايكل أنج للنبي داوود. وفي فلورنسا كان النادل في المطعم يصر على استبدال الماء الذي يطلبه عسكول بالبيرة التي يشربها هو بنفسه، زاعما أنهم لا يقدمون الماء مطلقا في مطاعم المدينة.

ثم صعدا باتجاه الشمال الشرقي، وتوقفا 18 ساعة في مدينة بولونيا الصناعية، واكتفيا بالتفرج عليها من قمة برج أسينيلي المائل. ثم اتجها شرقا صوب فينيسيا (أو البندقية)، ونزلا فيها ببيت الشباب المجاني، والذي كان على عسكول أن يدفن حياءه فيه ويستخدم الحمامات الجماعية من غير أبواب. وقضيا فيه خمسة أيام، زارا خلالها معظم المتاحف، منها متحف كورير، ومتحف قصر دوجي، وقبة بلانيتاريو دي ميلانو الفلكية، ومكتبة مارسيانا. وبعد زيارة عسكول لمتاحف البندقية وفلورنسا شعر أنه بإمكانه التقدم لأي امتحان في تاريخ الفن الإيطالي.

وبعد انتهاء زيارتهما لفينيسيا عادا باتجاه الجنوب، وكانت روما محطتهما الأخيرة. ونزلا فيها بفندق بائس

لكن سعره كان مناسبا جدا. ومن أهم المعالم التي زاراها في روما إضافة إلى الكابيتول، مدينة الفاتيكان التي قضيا في دهاليزها نهارا كاملا بدون أكل ولا ماء. ولم يكن عسكول قد نوى الصيام. وخلال تسكعه في ساحة سانت بيير لاحظ أن بعض المؤمنين يتصدقون للفقراء والمساكين -الذين كان يومذاك في عدادهم- من خلال إسقاط -خلسةً- بعض الأوراق النقدية على الأرض. وطبعا لا يلتقطها إلا المحتاج. والله أعلم.

وفي كل الأحوال، بدا له أن معظم زوار الفاتيكان وساحة سانت بيير كانوا يأتون للسياحة، وليس للزيارة الدينية أو الحج، مثلما هو الحال بالنسبة لزيارتهم لضريح القديسة فاطمة، الذي يقع في بلدة فاطمة البرتغالية الأندلسية، والذي يحج إليه سنويا ملايين من المسيحيين الكاثوليكيين. وقد زاره عسكول لاحقا برفقة صديقه فيريو وعائلته، وشاهد هناك كيف يزحف المؤمنون زحفا على ركبهم نحو نصف كيلومتر ليصلوا إلى جوار ضريح القديسة فاطمة. وقد زحف إليه مثلهم البابا قبل بضع سنوات فقط، سنة 2017.

أعياد نهاية العام 1978 في باريس:

في الظروف العادية، الفرنسيون ليسوا شرسين، ولا يشكلون مصدر خوف للعربي الذي يعيش بينهم، بل العكس هو الصحيح، فالفرنسيون هم الذين يخشون عادةً شراسة العربي. ويبدو أن رواية (الغريب) لألبير كامو قد رسخت هذا الشعور لديهم. لهذا كان عسكول لا يتردد في التنقل بين المدينة الجامعية في بيساك وتالانس ووسط المدينة بالدراجة الهوائية، أو حتى مشياً بعد منتصف الليل. وأخبره صديقه البرتغالي أنه يشعر بالاطمئنان عندما يتنزهان معا في شوارع المدينة في وقت متأخر من الليل. وحينها كانا لا يتعرضان لأكثر من مساءلة رجال الشرطة (أين أوراقكم؟)، هذا إذا كانوا مجموعة، أما إذا كان شرطي بمفرده فهو لا يتجرأ أبدا على إيقافهما وطرح السؤال.

وربما هناك حوادث استثنائية بسيطة. مثلا، في نهاية الفصل الثاني من العام الدراسي 1978/1977، أثناء تناوله وجبة العشاء في المطعم الجامعي المركزي، الذي يقع وسط المدينة، سرق أحد جيرانه في طاولة الأكل، شنطة أوراقه من جيب الأوفركوت حينما قام ليطلب (لحقة) من المطبخ، وأخذ ما بها من فرنكات قليلة وخمس

تذاكر مطعم، ورمى الشنطة في علبة البريد التي تقع في ساحة النصر. وبعد أن بلّغ الشرطة بالحادث، استلم اشعارا من إدارة البريد، تعلمه فيه بالعثور على شنطته ضمن الرسائل المجمعة ذلك اليوم. ولم تتكرر الحادثة.

في مطلع العام الدراسي 1979/1978، سجل عسكول في المستوى الثاني والأخير من دبلوم الدراسات الجامعية العامة -آداب حديثة. ومقارنةً بالصعوبات التي واجهته في العام السابق، كانت الدراسة في ذلك العام سلسة وجذابة. لم يواجه أي مشاكل تستحق الذكر. وكان من أهم المواد المركبة التي درسها: (LM) المكرسة لدراسة (أدب الأنا أو الذات في الأدب). وكان عليهم أن يدرسوا في إطارها - كما سبق أن ذكر عسكول- نصوصا لميشيل دي مونتيني وجان جاك روسو وشاتوبريان وفيكتو هوقو وجان بول سارتر. وقد واصل عسكول الاهتمام بأدب الذات حينما أصبح أستاذا في كلية الآداب بجامعة عدن. فحتى هذا العام الدراسي 2022/2021 كان أدب السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم هو الموضوع الذي اختاره لطلبة الدكتوراه.

***

وبمناسبة أعياد نهاية العام الميلادي 1978، حالف عسكول الحظ وبرز اسمه ضمن الطلبة الذين دعاهم الكنوز (CNOUS) لحضور حفل رأس السنة الميلادية

1979، في قمة برج موبارناس في باريس. وكان عسكول قد تلقى كذلك دعوة للمشاركة في مؤتمر اتحاد الطلبة الجنوبيين، الذي عقد في باريس في عطلة نهاية العام 1978. ونظّم المؤتمر في إحدى قاعات المدينة العالمية (La Cite Internationale)، وفيها تعرف على كثير من الزملاء، من بينهم المهندس القنزل، والمهندس محمد العراشة الذي دعاهما لشرب الشاي في السكن الذي كان يعيش فيه مع زوجته الفرنسية كلود العراشة، التي أصبحت فيما بعد مدرسة في قسم اللغة الفرنسية بكلية الآداب جامعة عدن.

وفي ذلك المؤتمر ناقش المجتمعون ظاهرة تعثر عدد كبير من المبتعثين الحنوبيين إلى الجامعات الفرنسية، لا سيما الذين جاءوا بعد الثانوية مباشرة، وأوصوا بوقف ابتعاث أي طالب جنوبي بعد الثانوية العامة، والاكتفاء بابتعاث طلبة الدراسات العليا. ويبدو أن الحكومتين اليمنيتين قد تبنتا تلك التوصية. وفي الحقيقة، حتى طلبة الدراسات العليا عانوا كثيرا من نظام التعليم الجامعي الذي أقره فونتانيه سنة 1973، والذي قسّم التعليم الجامعي والعالي في فرنسا إلى ثلاث دورات (Cycles)، دبلوم دراسات جامعية عامة سنتان، وسنة ثالثة لليسانس، وسنة رابعة للمتريز (وأضيفت إليها سنة خامسة للمتريز2)، ثم

دراسات الدكتوراه الموزعة على سنة تمهيدية يسمونها (دبلوم الدراسات المعمقة) وسنتين على الأقل للأطروحة. والمشكلة أن الفرنسيين كانوا يلزمون الطالب العربي الذي يحمل البكالوريوس (أربع سنوات) من الأقطار العربية بتحضير رسالة المتريز، التي لا يعادلها العرب بالماجستير. وقد عانى العرب المغاربة كثيرا من اتِّباعِهم لهذا النظام الفرنسي الذي تم إلغاؤه في فرنسا وأقطار المغرب العربي في مطلع هذا القرن، واستبدلوا المتريز1 والمتريز2 بالماستر (الماجستير).

سنة الليسانس:

رسميا كانت منحة عسكول تنتهي في نهاية العام الدراسي 1980/1979. وهو العام الذي حضّر خلاله الليسانس. وكانت سنة صعبة نوعا ما. فالليسانس يتكوّن من شهادتين مركبتين؛ (شهادة الأدب) الإجبارية (CL)، وهي التي تعطي لليسانس صفة (الآداب الحديثة)، وتتضمن جزءا خاصا بالأدب الفرنسي، كان تلك السنة مكرسا لدراسة أدب الرحلة من خلال نصوص لجيرار دي نرفال (رحلة إلى الشرق)، و(مسار السفر من باريس إلى القدس) لشاتوبريان، وجزءا خاصا بالأدب المقارن درّسه إياه العجوز (المتأمرك) جان سيميون، الذي كان أحد أشهر أساتذة الأدب المقارن في فرنسا حينذاك، والذي قدم

لهم براهين كثيرة تُثبِت تفوّق إدجارد ألان بو على كل من تشيخوف وموباسان في فن القصة القصيرة، وأصرّ على الذهاب إلى باريس في 15 أبريل 1980 للمشاركة في تشييع جثمان الأديب الفيلسوف جان بول سارتر. وتتضمن الـ(CL) جزءا خاصا بالأدب العربي، الذي كان عليه استنهاجه في قسم اللغة العربية في شارع باستور. أما الشهادة الأخرى فكان عليه أن يختارها من بين سبع شهادات متنوعة، وتشكل التخصص المساعد أو الأصغر؛ وقد اختار شهادة اللغويات (C1)، المكرّسة في الواقع لنظريات الاتصال وقراءة النصوص بوصفها خطابا وفق نظريات ما بعد البنيوية. وكان خطه قد تحسن كثيرا في تلك السنة، وخلت واجباته من الأخطاء اللغوية، ونالت إعجاب الأساتذة، وتحديدا سيمون جون، الذي قَبِلَ الإشراف على رسالته للمتريز.

كان عدد الطلاب في مستوى الليسانس قليلا، مقارنةً بعددهم في مجموعات الدبلوم. ولا شك أنه قد جرت غربلة واسعة للطلبة من خلال الامتحانات الصعبة، الهادفة إلى تطبيق سياسة الانتقائية المفرطة. ففي الواقع، كانت الجامعات الفرنسية وقتذاك تقبل أعدادا هائلة من الطلبة في المستوى الأول، لكنها تضع امتحانات صعبة جدا في نهايته، كيلا ينتقل إلى المستوى الثاني إلا عدد محدود جدا

من الطلبة. ويمكن أن تصل نسبة النجاح في العلوم الإنسانية إلى 35%، لكنها لا تتجاوز في الطب الـ 5%. لذلك يمكن أن نسمي سنة أولى طب في فرنسا (سنة مفاضلة أو سنة تحضيرية)!

وقد تسبب تطبيق نظام الانتقائية المفرطة في السياسة التعليمية الفرنسية، التي كان من بين ضحيتها بعض الزملاء، احتجاجات كبيرة، إذ شهدت جميع المدن الجامعية مسيرات وإضرابات. واستطاع اليسار الفرنسي أن يوظف موجة الاحتجاجات في الأوساط الطلابية والعمالية لصالحه، وتمكّن الحزب الاشتراكي الفرنسي من الإطاحة بالقوليين الفرنسيين من البرلمان ورئاسة الجمهورية. ففي مايو 1981، شهدت جميع مدن فرنسا احتفالات كبيرة بانتصار فرانسوا ميتيران الذي أصبح رئيسا لفرنسا من تلك السنة إلى سنة 1995.

وفي سنة الليسانس، كان عليهم أن يعملوا ضمن فرق عمل صغيرة، في المكتبة. وكان هناك تباين كبير بين الطلبة، فمنهم الأدباء الموهوبون ومنهم أبناء برجوازيي بوردو، الذين كان همهم الوحيد إضافة شهادة في الآداب الحديثة، إلى سيرهم الذاتية، من قبيل (البرستيج أو البدانتيسم). وكان عسكول من بين الطلبة الذين تحصلوا

على الشهادتين (CL C1) في دورة يونيو 1980، وكانت نتيجته في شهادة التخصص جيّدة بعكس نتيجته في شهادة اللغويات. وبفضل نجاحه في امتحانات الليسانس من الدور الأول، تحصل عسكول على منحة لمدة سنة إضافية، أي إلى نهاية يونيو 1981، ليتمكن من تحضير المتريز: تمهيدي ورسالة معا.

وفي صيف 1980، أصرّ صديقه الفرنسي ميشيل لبوا على تدريبه على قيادة السيارة، وكان يقود سيارته بسهولة من بوردو إلى شاطئ أركاشون صباح كل سبت، لكنه لم يستطع أبدا قيادة السيارة في شوارع بوردو، لاسيما في الليل حينما يفقد معظم (البوردليين) أعصابهم، إما بسبب طول زمن التوقف عند الإشارات الحمراء، أو بسبب مبالغتهم في شرب النبيذ خلال وجبة العشاء.

سنة المتريز:

في العام الدراسي 1981/1980، كان على عسكول أن يحضّر شهادة المتريز. ومن أجل ذلك، استنهج مادة مركبة تسمى (C1)، ويتدرب الطلبة من خلالها على مناهج إعداد البحوث المتينة والرسائل العلمية. وفي حين كان فريق من الأساتذة يصرُّ على إجبارهم على استخدام

مبادئ التحليل وفق خطوات ديكارت، كان هناك فريق آخر حداثي يحرص على تدريبهم على تحليل النصوص وفق مناهج الخطاب والسرد كما روّج لها بارت وجينيت وتودوروف وجاكبسون.

وبسب قلة عدد الطلبة في برامج المتريز بقسم الآداب الحديثة، كانت الكلية لا تتردد في مزج طلبة تلك البرامج مع المتقدمين لنيل درجة (الاقريقشان agregation)، وهي شهادة تؤهل للالتحاق بسلك التدريس الثانوي والجامعي في فرنسا، وترتكز على امتحانات المفاضلة. ومن حسن حظ عسكول أن الأستاذ ميشيل شميدت قَبِلَ أن تكون مشاركته الشفهية والتحريرية في السيمينار (حلقة النقاش) الذي يشرف عليه حول (رحلات السندباد في ترجمة أنتوان قالان لألف ليلة وليلة)، التي سيكرس لها أطروحته لنيل شهادة الدكتوراه.

وكما ذكر عسكول، قَبِلَ الأستاذ سيمون جون (Simon Jeune)، الذي كان في الخمسينيات أحد طلاب أستاذ الأدب المقارن جان ماري كاريه، وأسس قسم الأدب المقارن في جامعة نانسي قبل أن يستقر في بوردو سنة 1967، أن يكرس رسالة المتريز لدراسة (شخصية الخادمة في كتابات الروائي قوستاف فلوبير: مدام بوفاري

وقلب متواضع). وسمح له أن يمزج في رسالته بين المناهج التقليدية لدراسة الشخصية الروائية، والمناهج الحديثة التي تتعامل مع الشخصية بوصفها وحدة وظيفية (من وحدات بروب).

وفي الحقيقة، لم تواجه عسكول صعوبات جمة في إعداد الـ(C1)، ولا في تحضير الرسالة. وقد اعتمد كلياً على نفسه، وهو ما أكسبه تقدير أساتذته، الذين تنبهوا إلى أن قدرته على الكتابة باللغة الفرنسية تفوق قدرته على التحدث بها. ويبدو أن ممارسته لتدريس اللغة الفرنسية في السنوات اللاحقة وكذلك ممارسته للترجمة الشفهية قد ساعدتاه كثيرا على ردم تلك الهوة بين الكتابي والشفهي.

ومن اللافت أن المسافة بين الطلبة والأساتذة في فرنسا تتقلص كثيرا كلما ارتفع مستوى الدراسة؛ فالأساتذة لا يمانعون أبدا أن تتم مناقشة أبحاث الطلبة أو فصول رسائلهم في الكافتريات أو المطاعم. لهذا لم يفاجأ عسكول حينما دعاه مشرفه سيمون جون للمشاركة في الرحلة والوليمة التي نظمها لزملائه الأساتذة لزيارة بلدة شارنت مسقط رأسه الواقعة بالقرب من مدينة أنقوليم، شمال شرق بوردو. وعند دخولهم البلدة توقفا وصحباه للمقبرة وشاركا معه في الدعاء عند قبر والدته. ثم طافا معه في

شوارع أنقوليم، قبل أن يتوجها إلى قصر أبيه، الذي يحتوي على غرفة كبيرة محاطة بدواليب تحوي آلاف الكتب، التي أكد أنه قد قرأها كلها.

***

في إجازة نهاية سنة 1980، ذهب عسكول إلى مدينة روان في شمال فرنسا، لزيارة الزملاء الدارسين هناك، منهم أبوبكر عبد الرشيد وحبيب سروري ونصيب عبد الرحمن وكمال ماطر، وعدد من معيدي كلية الزراعة بجامعة عدن، والمشاركة كذلك في لقاء للطلبة اليمنيين هناك. ونزل ضيفا لمدة يومين على الزميل محمد عاشور الكثيري، الذي كان حينها يدرس اللغة الفرنسية هناك.

وفي مطلع العام 1981، انتدبه قسم اللغة العربية لتقديم دروس تقوية في اللغة العربية لعدد من أبناء الجالية الجزائرية والجيبوتية في بوردو، ويبدو أن التلاميذ الجيبوتيين هم الذين استفادوا من دروسه، أما الجزائريون فقد اتهموه بأنه لا يتكلم العربية مطلقا، وشرعوا هم في تعليمه: بالزاف وبرشة...، إلى درجة أنه عندما عاد إلى عدن في يوليو 1981، كان يتحدث العربية مثلهم تماما. وحينها فقط اقتنع أن مسرحية (الدرس) لأوجين يونيسكو لم تكن حقا عبثية!